

مصطفى محمود

الغالبون

الطبعة الثامنة



دار المعارف



أنا الدكتور م . داود دكتوراه في جراحة المخ والأعصاب من جامعة برلين .. أخطو الآن نحو الستين من عمري وإن كانت المرأة التي تطل على من ركن الدولار تقول غير هذا .

تجاعيد ... وعظام بارزة .. وأنامل معروفة .. وبشرة مفضنة .. وخذ
هضم .. وشعر أشيب .. وأجفان وارمة .. وعينان حمراوان تطل منها نظرة
مرتاعة .. تلك النظرة المرتاعة دائماً .. كأنى كهل فى الثمانين يخطو خطوته
الأخيرة نحو النهاية .

لا.. بل هو ذلك السر..

ذلك السر الرهيب الذي ظلت أحمله بين جنى طيلة هذه السنوات
وأحمل معه تلك المسئولية الجسيمة ..

والی منی .. ؟ !

لقد جاء الوقت .

نعم .. جاء الوقت لأتكم وأسطر في هذه الأوراق خفايا هذه السنوات
الرهيبية التي عشتها .. وأكشف ذلك السر .

وليعذرني من تقع في يده هذه المذكرات اذا وقع على اصطلاح لم
يفهمه .. وليغفر لي السرعة التي أكتب بها تلك الأوراق فما بقي في العمر
فسحة ..

وهأنذا أكتب الآن وأنا ألهث وأشعر بدبيب الموت يدب مع كل
نبضة .. لكأنما الفناء سوف يلحقني قبل أن أفرغ من كشف هذا السر
الرهيب .. ولوحدث ذلك .. ياإلهي .. من يدري؟ .. ربما عاشت
الإنسانية أجيالا أخرى من الظلمات قبل أن تتجلى تلك الحقيقة المينة فلا
يكشفها أحد .. وتظل الحياة سراً مستغلقاً ملغزاً إلى الأبد .

ودعوني أبدأ .. فالقصة طويلة .

ولأبدأ من البداية ..

من عصر ذلك اليوم البعيد من ست سنوات .

• • •

في شتاء عام ١٩٥٨ في يوم أحد غائم رطب في غرفة الكشف بالعيادة
وقد شربت قهوتي كالمعتاد حينما طرق الباب أول زائر ، شاب نحيل صفراوى
النظرات ، ذو وجه شاحب .

كدت أقول له من اللمحة الأولى الشكوى التي يشكو بها .. وأصف له
الدواء دون حاجة إلى فحص .

كان وجهه صفحة مكشوفة معروفة تنبئ عن مصران غليظ ومرارة وسوء
هضم .. ذلك الثلاثي المألوف في بلادنا .

ولكنه لم يشك بأى شكوى من هذه الشكاوى وإنما قدم لي رويشة عليها
تحويل من طبيب معروف .. وعلى الرويشة قرأت خمس كلمات :

اشتباه ورم في المخ .. للفحص .. والعلاج .

ورم في المخ ؟

ما الذى جعل الطبيب يفكر في احتمال ورم بالمخ ؟

وسألته عن شكواه فقال إنه يعاني من صداع مزمن وزغللة في العين ..
أعراض عادية يمكن أن توجد في ألف مرض ومرض .

سوء الهضم يمكن أن يؤدي إلى صداع .. الإمساك المتكرر .. فقر الدم ..
الجيوب الأنفية .. الأضرار التالفة .. ضغط الدم .. عدم استخدام
النظارة في القراءة .. إدمان الخمر .. القلق النفسى .. كل هذه أسباب
يمكن أن تؤدي إلى صداع وزغللة . ما الذى جعل الطبيب يفكر في ورم
بالمخ ؟

هذا تشخيص خطير لا يصح فيه الأخذ بالشبهات .

ولم يكن أمامى وقت لأتأمل وأتأمل .

ومضيت في الفحوص المألوفة .. كشف دقيق لقاع العين .. صورة أشعة
للدماغ .. قياس ضغط للسائل الشوكى .. وإجراء رسم كهربائى للمخ .
ومن خلال منظار قاع العين مضيت أتأمل العصب البصرى ..
الشبكية ، وكانت النظرة الأولى مؤكدة لظنى .. لم تكن هناك أى علامة
من علامات ورم المخ وارتفاع ضغط السائل السحالى .. كان كل شيء يبدو
طبيعياً .

وتشجع المريض وهو يرى الانتسامة على وجهى وسألنى :

- كيف الحال يا دكتور .

- خير .. كل خير .. أنا لا أرى أمامي أى شىء .

- متشكر .

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى اضطراب :

- ولكن الدكتور كان عنده اشتباه .

- أى اشتباه ؟ أنا لا أرى أمامي أى مرض مريب .. وعلى أى حال

سأكشف عليك بالأشعة لتطمئن .

وبينا كانت المريضة تجهز غرفة الأشعة ، كنت أكب ملاحظاتي

كالمعتاد فى ورقة الكشف .. وكان يجالوب عن أسئلتى وقد زال التوتر من

نبراته .. وتراخت عضلات وجهه المنقبضة .

- اسمى راغب دميان ، مهندس كهرباء أقيم فى ١٥ شارع ابن الوليد

مخداتق القبة ، أعمل حالياً فى وحدة أبحاث الراديو فى قصر العيني .

- متزوج ؟

فأجاب بابتسامة وهو ينظر إلى دبلة الخطوبة فى يده اليسرى :

- فى الطريق .

- منذ متى وهذه الثوبات من الصداق تعاودك ؟

- منذ شهرين .

- كيف بدأت أول نوبة ؟

- كان ذلك فى ليلة أحد .. وما زلت أذكر اليوم والساعة وكأنها حدثت

الآن .. كنت فى طريق عودتى من السينما والليل شديد الظلام والقمر فى

خسوف كلى والأولاد يجلبطون على الصفيح .. هذه العقائد الخرافية الشائعة

فى الأحياء البلدى .. وأنا أتلفت حولى فى شرود أفكر فى الفيلم .. وأنظر

حولى فى البيوت والمآذن والحقول فيخيل إلى أنها مرسومة بالفحم وأنها غير

حقيقية .. وأرى الدنيا كلها بعين حائلة وسنانة فيخيل إلى أنها وهم ..

خيال .. وأن ..

وكنت أكب مايقوله باختصار حينما سمعته يسكت فجأة .. ورفعت

وجهى لأراه يميل فى ضعف وهو يغطى عينيه .

وبعد لحظات كان فى غيبوبة تامة .. يتنفس بجشربة ويهتف .. وقد

اتسعت حدقاته كأنما يعانى فرعاً هائلاً لا حد له ، وتنشجت أطرافه وتصلبت

كأعواد من حديد .

وبينا كنت أقوم بإسعافه .. لاحظت أن أطرافه تسترخى شيئاً فشيئاً ..

وأن عينيه تنغلقان فى هدوء .. وأن فمه يتحرك لتخرج منه كلمات واضحة ..

لم تكن كلمات عربية .. ولكن كلمات أجنبية .

ولم أجد صعوبة فى اكتشاف أنها لغة أسبانية .

كان يتحدث فى غيبوته بلغة أسبانية سليمة .. وكان يتكلم عن صديق له

اسمه « دون سباستيان كاميللو » مضارع فى حلبة ثيران ، وكان يبدو أنه على

وشك البكاء .. وظلت نبراته تنخفض حتى أصبحت هماً وفحيحاً مكتوماً ..

ثم سكت .. وتخفض وجهه بالدموع .

وكنت أنظر إليه فى ذهول .. وقد شلت غرابة المفاجأة ذهنى وبعد دقائق

رأيتة يفتح عينيه .. وينظر إلى كأنه عائد من عالم آخر وتدرجياً بدأت تظهر

فى نظرتة إشراقة الإدراك .

ثم رأيتة يمسك يدي فى رقة معتبراً ، وفى صوته رجفة .

- لقد رأيت بنفسك .. إنها النوبة .

والتقط أنفاسه ثم عاد يقول بصوت باك :

- إنها تفاجئني في أى مكان .. بدون إنذار .

وراح يفرك يديه في استسلام .

وسأله :

- هل أخذت شهادتك من أسبانيا ؟

ونظر إلى في دهشة لسؤال المفاجئ :

- لا ..! أخذتها من مصر .. أنا لم يسبق لى أن سافرت خارج القاهرة

وقلت مندهشاً :

- ألم تتعلم الأسبانية ؟

وأجاب في دهشة أكثر من دهشتي :

- أنا لا أعرف حرفاً واحداً في الأسبانية .

ثم أردف في ارتياب :

- لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- لأنك طوال النوبة كنت تتكلم الأسبانية .

وبدا عليه أنه لا يفهم ما أقوله .. ونظر إلى مذهولاً .

كان من الواضح أنه لا يذكر حرفاً واحداً مما قاله في أثناء غيبوته

وجلست أدون ملاحظاتي عن هذه النوبة العصبية الغريبة .. وقد تحرك في

فضول لا حد له .

لم يكن ذلك الذى أراه أمامى .. حالة صداد .. ولا حالة ورم بالبخ .

وإنما حالة غامضة لا عهد لى بها :

في ذلك اليوم لم أستطع أن أكشف على أى مريض آخر .

كان ذهنى قد توقف عند تلك الحالة الغريبة .

وكانت أفكارى تدور وتدور ثم تعود لتتركز عند راغب دميان ، وفي

البيت لم أستطع أن آكل لقمتى دون أن أفكر .

وحينما ألقيت بجسمى آخر الليل على الفراش ظلت مفتوح العينين أفكر

وأعيد النظر في هذه الحالة الغريبة .

هل يمكن ؟

هل يمكن أن يجيد الإنسان لغة لم يتعلمها .

وإذا لم يكن هو الذى يتكلم ..

فن كان يتكلم ؟

وكيف يوجد اثنان في جسد واحد ؟

هل هى الخرافة التى يسمونها المس الروحى ؟

غير معقول ..

هذه تخاريف لا يمكن أن تقال في عصر الذرة .

لم أكن أعتقد في شيء اسمه أرواح ، فأنا بحكم دراستى أعلم أن كل

شيء حقيقى في الدنيا يجب أن يكون قابلاً للإدراك بالحواس .. أما ما لا يرى

ولا يُسمع ولا يُشم ولا يُحس ولا يُعقل فهو ببساطة غير موجود .

الحياة .. نظام .. وقوانين .. ومقدمات .. ونتائج .. وأسباب ..

ومسيبات .. لا مكان للتخمين والطمس ..

لا مكان للتخريف .. وافترض أشباح لا وجود لها .

نحن نعيش في عالم منطقي معقول .. وما يحدث حولنا يمكن رصده في

إحصاءات ومعادلات ويمكن دواسته وملاحظته والتنبؤ به .
لا مكان لهذه التخاريف .

كنت أرفض بشدة هذا التدجيل . . .

ولكنني في الواقع . في أعماق نفسي لم أكن مستريحاً .

كنت أشعر أن ما قلته ليس هو كل الحقيقة .

نعم .. فهناك أشياء كثيرة غير مفهومة .

هذا الراديو ، الترانزستور ، الصغير في حضي الذي لا يزيد حجمه على
علبة كبريت يلتقط من الهواء كلمات .. هذه الكلمات كانت تسبح أمواجاً في
الفضاء .. ومن قبل أن أفتح هذا الراديو .. كانت هذه الأمواج تذرع
الفضاء حولي .. لا ترى .. ولا تسمع .. ولا تحس .. ولا تلمس .. ومن
قبل اختراع هذه العلبة الصغيرة السحرية .. كان الفضاء مشحوناً بهذه
الموجات اللانهائية بدون أن تدرك أو ترى .. فهل معنى هذا أنها كانت دجلاً
وهذاياناً لا وجود له .

نحن في العادة لا نعترف إلا بما نراه ونلمسه .. وهذا غرور .. فما أقل
ما نرى .. وما أقل ما ندرك في هذه الدنيا .

هاهنا بين يدي في هذا الراديو الصغير بقلعة جسيمة من المؤشر أسمع
إشارات تليفونية واضحة من محطات مختلفة من العالم .. لو كانت عندي
شفرتها لعرفت ماذا تقول .. ولكنني بدون هذه المعرفة لا تبدو هذه الإذاعات
إلا مجرد دقات وشوشرة .. وبالمثل هذا « الوش » الذي أسمع حيناً أحرك
مؤشر الراديو مرة أخرى قد لا يكون وشاً .. قد يكون لغة أخرى لا أعرف
شفرتها .

كانت فكرة عابرة .

ولكنها بدت لي محيطة .

فقد بدأت الرياح تزجج في الخارج والحو يردد .

وساءلت نفسي . هل هي ضجة .. مجرد ضجة .. أو أنها هي الأخرى

لغة ؟ وإشارات مثل إشارات « مورس » لها شفرتها ومفتاحها ؟

نعم .. من يدري .. ربما كانت لغة كونية ومفردات وكلمات .. كل ما في

الأمر أننا نجعل شفرتها .

وانفتحت ضلفة النافذة فجأة ومرقت ربيع باردة .. فانتفضت في

مكاني ، وجذبت الغطاء في رعب وأنا أنظر إلى البرق الذي شق ظلمة

السماء كسيف لامع .

نعم ..

كل هذه الأحداث يمكن أن تكون لغة بالمية لا نعرف شفرتها ..

خلف هذه الظلمات المحجبة .. من يدري .. كم من الأمواج

والإشعاعات مما نعلم ، ومما لا نعلم !

وخلف هذا الصمت الأبدي .. وراء هذه المتاهات الشاسعة من

الفضاء .. كم من الأصوات هناك مما لا نسمع .. ومن الأرواح ، ومن

الأطياف ؟

ولنتابني دعر ..

وأخذت أتلهص بعيني من تحت الغطاء .. وقد بدت لي كل قطعة

أثاث في الغرفة السابحة في الظلام وكأنها كيان له لغته وله روحه .

وتسلل الذعر إلى أوصالي فجمّدها وشّلها .

واستجمعت كل شجاعتي .. ومر وقت خلته ساعات وأنا أتسلل
بأصابعي إلى زر النور لأضغط عليه .

وأضاءت الغرفة بنور باهر .. وتصيب العرق بارداً على جسدي ..
وتنفس الصعداء .. وأنا أتلفت حولي في قطع الأثاث المألوفة .
كانت كل قطعة في مكانها .. جامدة ميتة كما عهدتها .. بلا روح ..
كنت أتخيل أشياء لا وجود لها .

يارب ..

ومسحت عرقى وشعرت بالسعادة وأنا أنظر إلى غرفتي المألوفة وقد
استقرت كل قطعة أثاث فيها خرساء لا تنطق .

كنت أشعر بالسعادة لأنني أنا الحي الوحيد في هذا الموات .
أنا الذي أهدد هذا الوجود .. وهو لا يملك أن يهددني .
أستطيع أن أحرك أي قطعة أثاث من مكانها وألقيها في الشارع . ها هنا
بيني .. وغرفتي .. وأشياء .. كلها ملكي .

وشعرت أنني أسترد حريقى إزاء هذه المفردات الجامدة المتناثرة وعادتنى .
الثقة بنفسى ..

وابتسمت ..

ثم ضحكت ..

ثم فهففت في عصبية على تلك الأفكار المستيرية التي راودتنى . كانت
سريحة مضحكة فعلاً .

كيف وصلت لي الفكرة إلى هذا المدى ..

إن الظلام والسكون والوحدة .. والأعصاب المتوترة .. يمكن أن تفعل
بعقولنا الأفاعيل .

ولكن ..

ولكني كنت مازلت أفكر .. وقد تذكرت أحداث اليوم العصيب كله .
كانت القضية كلها مازالت هناك بلا حل . ذلك المريض الغريب ..

راغب دميان ..

كان لا بد من تفسير ..

لم يكن في إمكانى أن أنام دون أن أعثر على تفسير .
وأشعلت سيجارة .. وعدت أفكر في هدوء وأتوسل بكل ما أعرف من
محصول علمي في جميع المجالات .

إن الأصوات .. جميع الأصوات في هذا الكون لا تغنى .. وكل ألوان
الطاقة يتحول الواحد منها إلى الآخر ولكنها لا تغنى .. الكهرباء تتحول إلى
حركة والحركة إلى حرارة والحرارة إلى ضوء .

والكبريت حينما يحترق ويختفي هو في الحقيقة لا يختفي ولكنه يتحول إلى
غازات ونار وأبخرة .

كل شيء باق .. لا شيء يضيع في هذه الدنيا .. وإنما هو يتحول
ويتبعثر ويتشتت .

ولو أمكننا بطريقة ما أن نجتمع مايتشتت في الكون ونعيد إلى صورته
الأولى كما نجتمع أمواج اللاسلكي من الهواء بجهاز الراديو الصغير ونعيد لها إلى
صورتها الصوتية الأولى .: لأمكننا أن نعرف الكثير .

لأمكننا أن نجتمع من الفضاء صوت الإسكندر المقدوني .. ونسمع

ما كان يقوله على أسوار عكا ..

نعم ..

من يدري ..

هذا احتمال .. مجرد احتمال .. مجرد نظرية .

قد يكون في مخ ذلك المريض العجيب .. راغب دميان .. توليفة
عصية خاصة تمكنه من جمع هذه الأصوات كما يجمع الراديو الأمواج
اللاسلكية من الهواء ويعيد نطقها .

وقد يكون ما حدث لحظة الإغماء .. أن هذه التوليفة العصية جمعت
من الهواء تلك الكلمات الأسبانية التي كانت مفقودة مشتتة في الفضاء ..
وأعدت نطقها .

نظرية خيالية ولكنها نظرية على أية حال .

وهي ليست بلا أساس ..

إنها بداية خيط ..

بداية واهية .. ولكنها بداية ..

واسترحت بعض الشيء ..

ومضيت أدندن في النافذة ..

وأدبرت البيك آب .. ورحلت أعبث في صف الأسطوانات على الرف
باحثاً عن موسيقى خفيفة تناسب وقت النوم .. ولكن الصف انفرط من يدي
وسقط على الأرض .

وانكسرت أسطوانة قديمة ..

ورحلت أجمع القطع المكسورة ..

وفي النور قرأت اسم الأسطوانة « بكائية أسبانية في رثاء المصارع
الأسباني الشهير دون سباستيان » .

دون سباستيان ؟

نفس الاسم الذي نطق به الرجل وهو مغنى عليه !

ولم أفهم معنى هذا كله ..

وكنت مازلت أنظر في قطع الأسطوانة المكسورة .. ويداي ترتجفان .

وكان قلبي يدق بشدة وأنا أستخرج الشريط من الجهاز وأبسطه أمامي
وأفحصه بعدسة مكبرة ..
أخيراً ..

كانت هناك تلك الذبذبة العالية غير الطبيعية تكاد تمزق التسجيل .
ذبذبة تبلغ قوتها ٩٠ ميكرو فولت ، تظهر مرة كل ثانية وسط
الذبذبات العادية القصيرة التي تتواتر بسرعة في التسجيلات المألوفة .
وكان من الواضح من شكل الذبذبة العالية وتواترها البطيء المنتظم أنها
لا تدل على ورم مخي أو صرع أو التهاب أو أى مرض مخي معروف .
وعدت إلى مراجعي ونشراني ومجلاتي الطبية أبحث عن حالة مشابهة
ولكنها كانت ساعات طويلة مضاعة .

لا إشارة من قريب أو من بعيد إلى سابقة مماثلة .
مازلت في مكاني متروكاً في غموض حيث بدأت .. لاخيظ من ضوء .
بعد كل الفحوص الطبية والتبع الإكلينيكي الدقيق .. مازلت في
مكاني .

كل ما استطعت أن أكتشفه أن هناك شيئاً ما .
الرسام الكهربائي أكد لي أن هناك شيئاً ما في مخ هذا الرجل .. ليس
برماً ولا مرضاً من الأمراض المعروفة التي درسناها ، ولكنه أيضاً ليس
الطبيعة السوية للمخ العادي ..

فما هو ذلك الشيء ؟

هل أعود إلى تفسيراتي الفلسفية فأقول إنه مخ به توليفة عصبية خاصة
مثل الراديو تلتقط الأمواج وتذيعها .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX ؟ XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

كنت أضع أمام مكتبي نتائج الأشعة والتحاليل والفحوص التي
أجريتها . وكنت أنظر إلى صور الأشعة صورة بصورة وأتمعننا بدقة .. وأمر
بأصبعي على كل ركن في الجمجمة التي تبدو ظلالها في الصور .
لا أثر يقود إلى طريق تشخيص .. لا دليل .

الصور جميعها طبيعية . الفحوص الإكلينيكية لا تلقى أى ضوء على
الحالة . جميع الاختبارات تشير إلى شخص طبيعي مائة في المائة . الأمل
الوحيد الباقي كان الرسم الكهربائي للمخ ..

ذلك الجهاز العجيب « الألكتروانكفالوجرام » الذي وصلني من أمريكا
منذ أيام .

كانت هنا فرصته الذهبية ليكشف عن إمكاناته .

ذلك الجهاز الذي يسجل النشاط الكهربائي للمخ ويرسمه على شريط .
كل نبضة كهربائية تخرج من المخ ترسم في شكل ذبذبة على الشريط .

أم أنه لا مرض هناك ولا توليفة خاصة .. كل مافي الأمر .. أن راغب دميان استمع إلى هذه الأسطوانة الأسبانية كما سمعتها عدة مرات فرسبت معانيها وأسمائها في عقله الباطن وعادته هذه المعاني والأسماء وهو مغمى عليه فراح يهذى بها في إجمائه .. كما نهذى بذكرياتنا في أحلامنا . ولكنه لم يكن يهذى .

لقد كان يتكلم أسبانية سليمة ، ويروي أحداثاً وقعت لذلك المدعو « دون سباستيان كاميللو » .

وكانت في الحديث حيوية من ينطق لغة بألفها وينطقها كما ينطقها أهلها .. لا بلبله عقل يهذى . كان في الأمر شيء .. كل التفسيرات غير كافية .

كنت أغوص في ألغاز متشابكة لا نهاية لها .. وأفكر وقد انتهيت من مرضى العيادة .

وحلت أنتظر راغب دميان على ميعاد خاص . واكتشفت فجأة أن ساعة كاملة مرت على ميعاده دون أن يحضر . وهي ليست من عاداته فهو دقيق في مواعيده .

وانتابني قلق يتزايد شيئاً فشيئاً . ورأيت نفسي أنتفض من مكاني وأختطف المعطف من الشماعة وأسرع بالخروج .

وألمم المنزل ١٥ شارع ابن الوليد بمحذاق القبة نزلت من العربة ورحلت أتلفت .

كان هو نفس العنوان الذي أملاه لي في ورقة الكشف . سألت البواب عن شقة المهندس راغب دميان .. فقال إنها شقة ١٢ في الدور العلوى .. آخر دور في العمارة .

وكان المصعد معطلاً .. فصعدت ستة أدوار على رجل . كنت أصعد ببطء .

وأتوقف من درجة لأخرى لألهث وألتقط أنفاسي .

وبينا كنت أمتد على درابزين السلم وأستريح لحظة .. لاحظت سلسولاء من الماء نازلاً على درجات السلم من فوق . وصعدت درجة درجة مع هذا « السلسول » الغريب وأنا أنظر إلى فوق . فضول متطلعاً إلى مصدر هذا الماء .

وكان الماء ينزل بشدة أكثر وأكثر ويتصاعد منه البخار كلما صعدت قترياً من مصدره مما يدل على أنه يتدفق من مصدر ماء ساخن . وأمام شقة ١٢ كان الماء والبخار ينسابان بشدة من تحت عقب الباب وانتابني القلق . فهذه شقة راغب دميان .

ووضعت أصمى على الجرس في اضطراب ، ودققت مرة ثم دقة أخرى يلة .

ثم رحت أدق دقاً متوالياً بانزعاج ، وأخبط على الباب . لا يجيب ..

لارصوت بالداخل سوى صوت حفية مفتوحة يتدفق منها الماء بشدة . ووقفت مسمراً في مكاني نهياً لخيالات متضاربه .

ماذا يمكن أن يكون قد حدث .. ماذا يجري بالداخل .
وما الواجب عمله .

أظلم واقعاً هكذا أم أكرس الباب .. أم أبلغ البوليس ؟
ولم أجد حلاً سوى أن أهول نازلاً .. وأبلغ البوليس .

• • •

وأمام الباب المكسور .. والشقة الفارقة في طوفان الماء .. تقدمنا أنا
وضابط البوليس إلى حيث يتدفق الماء .. من الحمام .

كان البانيو مملوءاً على آخره ، والحنفية مفتوحة .. والماء يسيل على
جوانب « البانيو » ليملاً الشقة .. والسخان مشتعلاً .

وانتقلنا من الحمام إلى غرفة النوم .

وفي غرفة النوم .. فوجئنا بامرأة في ملابسها الداخلية منحنية على
التسريحة ، وفي يدها منقاط حواجب

وتقدم الضابط في حذر ورفع رأسها .. كانت شاحبة ممتعة اللون وعلى
وجهها نظرة فزع هائلة .. وقد فارقت الحياة .

وأمسك الضابط بالتليفون ليبلغ النيابة والطبيب الشرعى . هل كانت
جريمة قتل ؟

وكيف .. وبأى سلاح .. ولا نقطة دم واحدة .. ولا جرح .. ولا آثار
خفق .. ولا دلائل عنف أو اشتباك دموى .

الأثاث مرتب .. مما يدل على أن الميتة كانت في طريقها الطبيعي لتأخذ
حماماً .. وأنها أشعلت السخان وفتحت الحنفية ليملاً البانيو .. وبينما كان
البانيو يمتلئ كانت هى تحمل حواجبها بالمقاط أمام المرأة .

وكانت تحمل حواجبها فى هدوء وهى تنظر فى المرآة .. حينما حدث فجأة
أن تولاهما ذلك الفزع الهائل الذى قصى عليها .

ماذا رأت فى المرآة لتقلب سحتها كل هذا الانقلاب .

لم تكن تقلصات وجهها تقلصات ألم ، وإنما كانت تقلصات خوف .

كانت عيناها جاحظتين محمقتين .. وعند ركنى فيها .. تلك الحركة
العضلية التى تدل على الرعب .

ولمحت فى أصعها ديلة ذهبية .

لا شك أنها خطيئته التى قال إنه فى طريقه إلى الزواج بها .

ولكن أين هو ؟

أين كان طول الوقت ؟

صورته على التسريحة يبدو فيها أكثر امتلاءً ووسامة مما رأيت . لا بد أنها
صورة قديمة .

أهو على علم بما حدث فى شقته أم أنه لم يعلم بعد ؟

وأين هو الآن ؟

وتسللت إلى حشرات الشقة الأخرى .

حجرة صالون متبل .. وحجرة أكل .. وحجرة مكتب أقرب إلى

معمل منها إلى مكتب .. مكتب صغير متروك فى ركن ، وبقيّة الغرفة بها مائدة

كبيرة مجهزة بمحوض ومواقد بنزن ، وأرفف للمحالب الكيائية ، وأنايب

اختبار ، وأجهزة تقطير ، وميكروسكوب موديل حديث قوته التكبيرية تزيد

على عشرة آلاف مرة .. وجهاز غريب معقد لم أفهمه .. أغلب الظن أنه

محول كهربائى ذو جهد عال .

تحت الميكروسكوب موحودة شريحة بالفعل .

ووضعت عيني على الميكروسكوب

كانت الشريحة لنسيج - حتى غريب يبدو أنه نسيج جيبى

ما الذى يجعل راعب دميان يمارس كل هذه البحوث المتشعبة فى الكيمياء والتشريح والباثولوجى والبكتريولوجى .. وهوكما ذكرى فى العبادة مهندس كهرباء فى وحدة أبحاث الراديو فى قصر العيني .. ما الذى يجعل حوثه تمتد إلى كل هذه المجالات

كنت أشعر بدهشة يمازجها الارتباب

من هو ذلك المدعو راعب دميان ؟

وما حياته ؟

وماذا يعمل بالضبط ؟

كنت أكاد أشعر من فرط التفكير أن ورم المخ قد أصلى

وكان الضابط طول الوقت مكفئاً على أرض الغرفة بمحصاه .. ويدون

رقماً وملاحظات فى نوته .. وأنا أفكر بدون أن أصل إلى حل

هل أقول للضابط إنه مريض من مرضى .. ولأنه حوّل إلى حياقي

بشبهة ورم فى المخ ؟

أمر تكون هذه الشهادة إفشاء لأسرار ليس من حق إفشاؤها .

إن ما يقوله المريض للطبيب سر حميم مثل الاعتراف الذى يقوله الخاطى

للقسيس ولا يصح إفشاؤه .

ولمخلقت فى وآثرت أن أفكر لفسى .

وكان السكوت ثقلاً جديداً يضاف إلى همومى .

ولاحظت وأنا أنظر فى وجه المرأة المتقلص من الخوف .. أن نظرتها

المرتاعة تذكرنى بوجه راعب دميان حينما داهمته بوبة الإغماء .

كانت النظرتان فيهما نفس التعبير .. ذلك الرعب المحير لكأنا أصلت

نعيان على سر رهيب مروع من تلك الأسرار المطلسة وراء الطبيعة

وكتت أشعر برحفة وأنا أطل فى العينين المفتوحتين . وأعطى عيني

يدى .. حينما سمعت الضابط يقول :

- أنت تعرفه ؟

وفوجئت بنفسى أكذب فى تلقائية :

- من الذى أعرفه ؟

- صاحب الشقة .

- لا .. هذه أول مرة أدخل الشقة .

ونظر الضابط فى وجهى باستغراب فأردفت موضحاً :

- جئت على استدعاء بالتليفون .. قال لى المتكلم إنه مريض جداً

وأعطانى العنوان .

- هل تستطيع أن تصف صوته ؟

- لا أذكر بالضبط .. كانت العبادة ساعتها مليئة وأصوات الشارع تغطى

على المكالمات .

ولا أعرف كيف تورطت فى هذه الأكاذيب واحدة تلو الأخرى .

كنت أريد أن أحتفظ بالسر لفسى

كنت أرى أن كل ما يجرى فى حياة هذا الرجل من حقى وحدى .. من

شأنى .. لا شأن لأحد به .

وكت أشعر شعورًا خفيًا بأنى أمام سر لا مكان للبوليس والنيابة فيه .
وتسللت إلى غرفة المعمل من جديد مشدوداً إلى الجو العلمى الذى
أحبه .

وأمام الميكروسكوب رحت أضبط العدسات مرة أخرى .. وأتأمل
الشريحة الموضوعه .. وأحاول أن أفهم طبيعتها .. كانت أشبه بنسيج
جيبى .. ولكنى لم أستطع أن أعرف على طبيعتها بالضبط فى الثوانى القصيرة
التي أتاحتها اللحظة المختلصة .

وبحركة خفيفة من يدي سحبت الشريحة من تحت الميكروسكوب
وأسقطتها فى جيبى دون أن يلحظنى أحد .

ولم أنس أن أدرس فى جيبى النوتة الحمراء الصغيرة التى وحدثها إلى جوار
الميكروسكوب

عملية سرقة واضحة .

ولكنى لم أستطع أن أقاوم الإغراء .

كانت رغبتي فى معرفة الحقيقة تغفر أمام ضميرى أى شيء .. وارتفعت
صوت ضابط البوليس من غرفة النوم .

- فيه نقطة دم .

وأسرعت خارجاً .. لأراه ينحن على السجادة وفى يده عدسة يتأمل
بقعة حمراء مستديرة لا يزيد قطرها على سنتيمتر .

ولم أشأ أن أقول له إن ما يظنها بقعة دم ليست إلا بقعة « مركريكروم »
من الذى يُستعمل فى مس اللوز .

وآثرت أن أتركه فى غفلته ينسج حرائم ودماء لا وجود لها .

واتسمت وأنا ألمح زجاجة « المركريكروم » على التسمية وإلى جوارها
« دوات المس » يستطيع الضابط أن يرسم بها مئات البقع الدموية والحرائم كما
يشاء خياله الحصب .

وحينما كنت أركب عربتي فى طريق العودة إلى منزلى فى ذلك اليوم
نفسى كنت أشعر بنشوة عجيبة كلما تذكرت أنى أحمل فى جيبى اللعز .
تلك الشريحة التى سرقها وعليها القصاصة من السيج المجهول التى كانت
لشغل الشاغل لذلك الرجل راغب دميان .. ونوتة ملاحظاته وكنت أصغى
على الترين متعجلاً الوصول إلى معمل .

كنت متفائلاً

وكت أتخيل أن المسألة لن تحتاج لأكثر من نظرة متأملة من عدسة
ميكروسكوب

سرطان ماذا ؟

ولكن القطاعات التي تبدو للأوعية الدموية في السيج لا يظهر فيها التمدد والانتساع والاحتقان المألوف في السرطانات .. الأوعية الدموية طبيعية .. وعلامات الانقسام والتكاثر الخلوي لا وجود لها .

سرطان .. وليس سرطان .. ونسيج عصبي .. وليس بنسيج عصبي ..
فماذا يكون .. ؟ !

تذكرت النوتة الحمراء فأخرجتها من جيبى ورحت أقلب صفحاتها .
وأصابتى حبة أمل لا حد لها ، فلم تكن الملاحظات الخطيرة التي توقعتها إلا
بيانات بمشتريات منزلية . وحساب الخزاز والمقال والصيدلى .

وشعرت بالصداع

وأشعلت لعاقة تنع

ومضيت أدخن وأفكر فى هدوء وأطفأت النور الذى أتعب عيني من
طول الحلقة فى عدسات الميكروسكوب .
كان أملاً ضعيفاً .

بم

من يدري ؟

ربما كان هو الآخر قد غادر الدنيا إلى غير عودة .. فهو الآخر يعيش على
حافة كارثة .

كانت النيابة قد أخذت شهادتى للمرة الثالثة .

وكان التحقيق مازال يسير بدون تقدم .. فلم يظهر أثر المدعو واغ
دميان وكأنه كان وهماً .

٢

كنت أصعب الشريحة تحت الميكروسكوب الكبير الذى استعرت من صديق
البكتريولوجى .. وأحاول جاهداً أن أملك طلاسمها .

كان ماظهر لى فى البداية أنه نسيج جنينى ظناً خاطئاً .. فالخلايا فى
تفاصيلها لا تشبه الخلايا الجيبية .. وهناك زوائد واضحة عند أطراف
الخلايا مما يجعلها أشبه بسجوم مذنب . وهى صفة فى الخلايا العصبية للمخ
واحبل الشوكى لا فى الخلايا الحينية البدائية

ولكن شكل البروتوبلازم والنواة .. وتوزيع الصبغة المستعملة مختلف عما
هو مألوف فى الخلايا العصبية
كان الأمر محيراً ..

وما كان يحير أكثر .. هو شكل النواة فى الخلية

كانت كبيرة متوهجة أشبه بنواة الخلية السرطانية ..
سرطان ؟ !

قلب البوليس الأرض بحثاً عنه دون جدوى .

احتفى .

نبخر .

لا خيط .. ولا دليل .. ولا أثر يقوده إليه .

الطبيب الشرعى قال فى كشفه على الجثة .. إنها حالة موت طبيعية نتيجة

فزع فجائى توقف له القلب وشلت الأعصاب ..

سكتة قلبية .. مثل السكتة التى تحدث فى الوفاة نتيجة الصاعقة ..

كيف حدث هذا الأثر الصاعق ..

ماهو ذلك الخوف الذى يوقف القلب ويشل الأعصاب كما تشلها

الصاعقة ..

أسئلة ..

مجرد أسئلة بلا أجوبة ..

وكنت أنا الآخر أسأل نفسى .. وأفكر .. دون نتيجة .. كل الفرق أنه

كان عندى أمل فى أن يتصل بى راغب دميان ..

فى كل نوبة من هذه النوبات التى تتابه كان يبدو وكأنه يروح فى غيبوبة

الموت .. وكأنه يخطو إلى هاوية لا قرار لها ..

نبضه الممتلى كان يخفت حتى يصبح ممساً . وتنفسه كان يتحول إلى

لهاث .

وأطرافه تبرد وتشلج ..

ثم فلك الفزع الذى يظهر عليه فتسع حدقاته فى جنون مثل حدقات

مدمنى الكوكايين وتتشنج أطرافه وتتصلب كأعواد من حديد ..

ماذا كان يرى فى غيبوبته ليفزع كل هذا الفزع ..

ثم هذه اللغة الأسبانية التى كان يتكلمها فى طلاقة كما يتكلمها أصحابها

.. ولم يتعلم منها حرفاً واحداً .

أهى حالة عصبية أم نفسية أم روحية ؟

أهى حالة فى متناول العلوم الطبية المعروفة ؟

كان الرد على هذا السؤال قابلاً فى أدراجى .. فى صور الأشعة العديدة

لتي التقطتها للرأس .. فى رسم المخ الكهربائى .. فى تحليلات الدم والسائل

لسحائى .. فى الفحوص الأكلينيكية المفضية التى أجريتها

وعدت إلى صور الأشعة أحاول مرة أخرى .

وأضأت النور .. وعدت أضعها الواحدة إلى جوار الأخرى .. ورحت

أنفحصها فى هدوء

وفجأة

هبطت الحقيقة وكأنها إلهام ..

لأنى تكن إلهاماً .

لقد تصادف أن كان على الفانوس الخاص باستطلاع الصور صورة

قديمة لجمجمة عادية لرجل سليم .

ولأول مرة أمكنتى أن أقارن الصورتين .

لم تكن ظلال الجمجمة فى صورة راغب دميان ظلالاً عادية كما

تصورتها للوهلة الأولى .

كانت العظام كلها أرق قليلاً من المألوف .

ملاحظة كان من الصعب إدراكها بدون اللجوء إلى المقارنة المباشرة ،

لأن الأثر الذي لحق بالعظام لحق بها جميعاً . فاحتفظت الصور بنسبها الطبيعية .

ما معنى هذا ؟

العظام أرق من المألوف ، فراغ الجمجمة أكثر .

هل هي حالة مرضية في العظام ..

لا .. لم تكن حالة عظم بدليل عظام العنق في الصورتين . كانت عظام العنق في الصورتين متماثلة وطبيعية .

العظم سليم .

وما حدث لعظم الجمجمة ليس مرضاً بالعظام .. وإنما نتيجة ثانوية لما

حدث في المخ

المخ ازداد في الحجم

عظام الجمجمة تمددت وورقت

الذبذبات الكهربائية الخارجة من المخ ارتفعت قوتها من ٥٠

ميكروفولت إلى ٩٠ ميكروفولت .

هناك شيء ما حدث في المخ .

وبرق في دهنى خاطر

إن ما حدث في مخ دميان .. المرجح أن يكون قد حدث مثل له في مخ

حطيته .. بدليل حالة الفرع التي عاشها الاثنان .

ومن حسن الطالع أن مخ الخطيبة المتوفاة أصبح في الإمكان تشريحه

ودراسته

وقعرت من مكاني لهذا الخاطر .

ورفعت سماعة التليفون لأطلب الطبيب الشرعى الذى أشرف على

وأجانبى الدكتور على الطرف الآخر من الخط .

سألته في خبث عن بعض التفاصيل في التشخيص

كنت في الحقيقة أريد أن أعرف مصير الحثة .

وكن ثنائياً بدرجة جعلتني في غنى عن استدراجه .

حكى لى أن الحثة ظلت في قصر العيني ثلاثة أيام دون أن يتعرف عليها

أحد

ثم تقدم رجل عجوز قال إنها ابنته التي خرجت من أيام ولم تعد ..

ويكى بمرارة وتسلم الجثة ووقع على استمارة التسلم بإمضاء عوض إبراهيم .

وأنه قرأ بعد ذلك نعيّاً في الصحف للمتوفاة تحت اسم ماري عوض . فيه

سما جميع أقاربها بما فيهم الأب عوض إبراهيم .. وأن تشييع الحنارة

سيكون في الصباح والدفن بمقابر الروم الكاثوليك .. قرأ هذا في صحف

يوم .

وفي الحقيقة لم أكن أريد أن أعرف أكثر من هذا ..

إنها دفنت اليوم بمقابر الروم الكاثوليك .

ربما من ساعات

ولم يكن أمامي وقت أضيعه .

كان لابد من الوصول إلى الجثة والحصول على المخ بسرعة قبل أن

يحل

وارتديت ثيابي .. وأخذت عربتي .. وأسهرت إلى المقابر .. كانت

الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل ، والبرد قارصاً والرياح
شديدة ، والشوارع خالية تماماً .

وشعرت بالاطمئنان .

في مثل هذا الخفاء والظلمة والسكون يستطيع الواحد أن يفعل أى
شئ .

وبلغت بوابة المقابر .

وكان الحارس ينام في غرفة إلى جوار الباب .

ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة المقبرة والوصول إلى الجثة بدون معونة

الحارس . . .

وظلمت أطرق باب الغرفة عدة مرات قبل أن أسمع خطوة الحارس وهو
يتعثر وأسمع تثاؤبه . . ثم أراه يفتح الباب وينظر إلى وقد فغرفاه في دهشة .
لم يكن غريباً على .

وسرعان ما تصافحنا في ود ، فقد كان الرجل مريضاً قديماً من مرضى
أعماله من سنوات من حالة صرع مزمنة .

وجرى كل شيء بعد ذلك في هدوء

صحبنى الرجل إلى المقبرة ومعه أدواته .

وصدق الرجل أنى أفعل هذا بتفويض من النيابة ، وأن في الأمر سرّاً
خطيراً لا يجب أن يعلم به أحد .

ومضى وقت وهو يرفع البلاطة الرخامية .

وكان صوت معوله وهو يهوى في الصمت والخراب كأنه يدق على

أعصابي

.. كان صدوي ينمذد أدمي في ضوء سحوي

هنا في فب ديت صدوي كدت خفيفه ندم لا يعصني سـ

.. من صدء حسني

خفيفه

وعلى ضوء نظارية صغيرة رفعت العطاء ليفاجئني مظهر مروع

كانت الخثة ممددة في الصندوق بلا رأس

الرأس مقطوعة من حذورها

وأذهنتني المفاجأة وألجمت لساني

وبصرت بارتباب إلى الحارس .. ولكن الحارس كان يقف مثل وقد

سعت عيناه من الصدمة وراح يحملني في الصندوق في بلاهة

كان واضحاً أنه خالي الذهن تماماً مما حدث ، وأنه أكثر مني جهلاً

.. مدس

وسقط قلبي في ضلوعي ، وكأن رأسي أنا هو الذي قُطع . وتذكرت

عب دمبي

كنت أرى يديه على حثه وتأثر بصوته على صندوق . وتأثر قدمه

سـ لا يصـ

.. كل هذه شئ في أنه صاحب المصلحة الوحيد في هذا العمل

.. كلانا نغري خلف شيء واحد مثل كلبي صيد مطلقين حثف سر

هـب

.. كـ سـ على أسـ

قد سقي

سقي

كنت أشعر حية من لا أحد هـ

وأعدت عصاء إلى مكانه

وتركت الحارس يسوى الأرض ويضع البلاطة مكانها

وعدت أدحي وأن أشعر بأن حصوات ثقيلة وساقى ورمته

كان بجنة عني ناس لا أحد هـ

كنت أقول معنى

بدك كد هـ معنى كبد هـ كنه فهو لربك دميح حي

وأنه يعيش في مكان هـ

وأنه لابد سيلجأ إلى هـ

لابد سيلجأ إلى

هل كنت أصمتن معنى ؟



أصبح التفكير في راغب دميح جزءاً لا يتجزأ من حياتي ؛ فأنا أصحو
م على وجهه المضمض الشاحب وعيني الزائغتين
وأنا أسمع صوته . وأهذى به في أحلامي .
وأنا أتخيله طول الوقت في معمله وقد انفرد بالرأس الذي نزرعه من الجنة
وراح يفحصه .

ماذا تراه قد وجد من أسرار في تلك الحقيبة من الجلد والعظم التي اسمها
الدماغ .

وأى بحوث غريبة يجريها ؟

هذه الخلايا الحية التي اسمها المخ .. كيف ترى وتسمع ونحس ونشم
تفهم

كيف تشعر بالألم ؟

وكيف تشعر باللذة ؟

وكيف يخلق لنا المخ هذا الضوء الذى اسمه الوعي والإدراك ؟ هل المخ هو العقل ، أو أنه مجرد وسيط يستخدمه العقل ليتعقل الأشياء ؟ إن ما قاله له الطب عن المخ والأعصاب قليل ، وأقل من القليل .. فالأعصاب أدوات استشعار تنقل المؤثرات الخارجية إلى مراكز في المخ ، كما تنقل أسلاك التليفون الكلام إلى الأذن .. وفي هذه المراكز كما فى الأذن يتم تصور هذه المؤثرات بالشكل الذى نراها به فى الواقع .

إننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئة حرارة وبرودة ، وضوء ونائحة ، وألم ولذة .

ولكن كيف ؟

هذه الترجمة التى يترجم بها مخنا كل المؤثرات التى تصل إليه .. هل هو ترجمة صحيحة ؟

هل الماء لا طعم له ؟

وهل الليل أسود .. والنهار أبيض ؟

أو أنها إحدى الصور الممكنة بين ممكنات لا عداد لها ؟

هل يمكن أن يكون لهذا العالم شكل آخر ؟

وهل يمكن أن نراه على صورة أخرى أكمل وأشمل وأصدق ؟

إن السر فى المخ :

إننا نبدأ وننتهى إلى المخ دائماً ، فهو المترجم الألكترونى لهذه الدنيا وهو الذى يصنع لها صورتها وشفرتها . فإذا أردنا أن نرى للكون صور أعمق وأصدق من التى نراها .. فلا سبيل سوى أن نقلك هذا الجها

الألكترونى الذى اسمه المخ ، ونعيد تركيبه ليكون أقدر على هذه الرؤية الخديعة التى نطلبها .
إنه المخ دائماً .

حقيقة الأسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .

المخ أولاً إذا أردنا أن نعرف حقيقة أى شىء .

وهو يعلم هذا جيداً ذلك الرجل .. راغب دميان .. وربما كان فى هذه

اللحظة يستخرج المخ من الحثة ويضعه على المشرحة ، ويقطعه جزءاً جزءاً
يفحصه بذلك الميكروسكوب الذى يكبر عشرة آلاف مرة .

وهو قد توصل إلى شىء .. شىء لا أعلمه .. ولكنه خطير .. يستطيع
ن يوسع نطاق المعرفة والرؤية والإحساس .

وربما أوصلته هذه البحوث إلى رؤى جديدة مفزعة .

نعم .. كان السر هناك تحت خبطات مشرطة فى تلك اللحظة وأنا هنا
أهت أمام أبواب مغلقة .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة .. وأنا مازلت مسهداً .. أستجدى
النوم بلا فائدة .

وفكرت أن أجرب الطريقة المألوفة فى جلب النوم .. بالقراءة
سحيفة

وبدأت أقلب أكوام الجرائد القديمة إلى جوار الفراش .. أقرأ
إعلانات ، والوفيات ، والمقالات المملة ، والحوادث التى قرأتها قبل ذلك
رات ومرات .

وبدأت الحروف تتراقص أمام عيني .. وبدأت أنعس .

وكت أوشك أن أنام حينما التقطت عيناى عنواناً فى صفحة الحوادث
فى جريدة قديمة عن سرقة عشر إبر راديوم ثمنها أكثر من عشرين ألف جنيه
من قسم أبحاث الراديوم بالقصر العينى .. وقد أبلغ عن السرقة مدير القسم
المهندس راغب دميان .

وطار النوم من عيني فجأة .. وقفزت من فراشى
ورحت أقرأ الخبر مرة ومرات وأنا أفرك عيني وأعود فأقرأ من جديد
الاسم بالبسط الأسود .. راغب دميان .

وقرأت تاريخ صدور الجريدة ..
كانت صادرة منذ ثلاثة سنوات .
ولا أدري لماذا احتفظت بها كل هذا الوقت ربما بسبب هذه الإحصائية
المنشورة عن الأمراض العصبية فى مصر والموجودة بنفس العدد .
من كان يظن أنى يمكن أن أضع يدي على سر خطير بهذه البساطة
إنه هنا .
راغب دميان بعينه .

وهذه السرقة التى أبلغ عنها هى من صنع يديه .
فلا أحد يسرق راديوم إلا لص عالم ، ونحاة يعرف فوائده وينوى
استخدامه والاستفادة به .
إن اللص العادى لا يمكن أن يمد يده إلى راديوم .
وأن يبيعه إذا سرقة ؟ وكيف .. ؟ وماذا يعنى الراديوم بالنسبة له ؟
لا شئ .

ن هذه السرقة وثيقة الصلة بالبحوث التى كان يقوم بها راعب دميان
مد ذلك الحين
وربما كان هذا التاريخ هو بداية اشتغاله بهذه البحوث . وكتبت التاريخ
فى ورقه

وقطعت قصاصة لخر من الصحيفة واحتفظت بها
لقد تقدمت خطوة .
إن راغب دميان لابد يحتفظ بهذه الإبر الثمينة من الراديوم فى مكان آخر
بىر بيته وغير معمله الذى اقتحمه البوليس ..
ومعنى هذا أن معمله الحقيقى وأدواته فى مكان سرى مخفى عن
أعين .. وفكرت ..
إن هذه الإبر الثمينة من الراديوم المشع سوف تفضحه
وكتبت ملحوظة فى نوتة بشراء عداد جييجر
عن طريق هذا العداد الذى يكشف عن اقل إشعاع سوف أستطيع
معرفة مكان المعمل السرى ومحباً إبر الراديوم .
* * *

كان أول شئ فعلته حينما توقظت فى الصباح .. هو شراء عداد جييجر .
ورسمت خطة محكمة لتقسيم القاهرة إلى عشر مناطق .. أذرع كل منطقة
عربة فى يوم . أتجول فى كل شبر فيها .. وأتمسك طريق .
وسوف يتولى العداد كشف المنطقة التى فيها الراديوم .. ثم يدلنى على
بيت .. والغرفة .. والخزانة .
لن يكلفنى الأمر أكثر من الصبر والمثابرة .

وبدأت اليوم الأول بحماس .

وطللت أنجول في ضاحية حدائق القبة .

فكرت أنه ربما اختار مجاه قرياً من بيته .

ولكن بحثي لم يسفر عن شيء .

كانت عيناى على مؤشر العداد طول الوقت ولكنه كان ينام نوماً ثقيلاً في مكانه

وفي اليوم التالى كنت أذرع شوارع المعادى .

وفي اليوم الثالث كنت في الدق .

وفي اليوم الرابع كنت في الجزيرة

وفي اليوم الخامس كنت في مصر الجديدة .

منطقة بعد منطقة رحت أذرعها في صبر وأناة ، بدون جدوى . فكرت أنه ربما كان يضع إبر الراديوم في خزانة من الرصاص مزدوجة الجدران وبمثل هذا الاحتياط يستطيع أن يمنع الإشعاع من التسبب بقدر يسمح باكتشافه .

كان مثل هذا الاحتياط بديهيًا من مهندس أشعة يعلم أنه سارق

وكان معنى هذا أني ألهث وراء شيء لا وجود له .

وصرفت النظر عن هذه المطاردة .

ونجيم على اليأس من جديد .

ولكن لا أدري لماذا برقت في ذهني من جديد حكاية النوتة الحمراء

لماذا فكرت فجأة أنه من غير المعقول أن تكون كل وظيفة هذه النوتة

هي إدراج حسابات الجزار واليقال والصيدلى ؟

ولماذا توضع مثل هذه النوتة بجوار المكبروسكوب ؟

وبسرعة أخرحتها من جيبى ورحت أتصفحها من جديد .

وماكدت أقلب الصفحات الأولى حتى فوجئت بصفحات في الوسط

كتوبة بالرصاص ، فيها معادلات كيميائية .

وفي صفحة أخرى ملاحظات متناثرة على شكل خواطر .

لوحظ أن العصب البصرى يحتوى على أكثر من مليون خط عصبي .

وأن الإشارات العصبية تنتقل في الأعصاب الطويلة مثل الأعصاب

ساقين عن طريق محطات تقوية كهربائية كيميائية ، وأن الليفة العصبية ليست

في الواقع إلا سلسلة من محطات التقوية تماماً كما في الكابلات التي تنقل

إشارات التليفونية عبر البحر .

- كيف تبقى البطاريات في الخلايا العصبية مشحونة على الدوام وفي

ة صالحة للإرسال والاستقبال طول العمر .. هذا هو السؤال .

- في الوقت الذي تنقبض عضلات القلب ٧٠ مرة في الدقيقة .. ولا

يكاد تنقبض عضلات المخ والأصداغ إلا مرة كل عدة ساعات لإغلاق

المخارة وفتحها .. لوحظ أن عضلات أجنحة الحشرات تنقبض حوالى ٥٠٠

مرة في الثانية ، المادة التي تتكون منها عضلات هذه الحشرات هي

الأكثوميسين (هي مادة بروتينية) ..

كيف يمكن أن تتم العمليات الكيميائية في هذه العضلات بمثل هذه

سرعة والكفاءة ..

- الجسم الصنوبرى في المخ .

- الأثر الإشعاعى على الكروموسومات .

وحت كلمة الجسم الصوري ثلاثة خطوط
حاولت أن أفهم المعادلات الكيميائية ولكن معلوماتي في الكيمياء

سعدني

وبعد لا أهتم بالجسم الصوري بعد

أنا أعلم من دراستي للتشريح أن الجسم الصوري هو زئبق في ملح بلا
وصفة معروفة . وكان معتقداً في الماضي أنها مركز الاتصالات الروحية
وهو اعتقاد خرافي رفضه العلماء من زمن .

ما ندى يجعله يفكر في الجسم الصوري . ويضع تحته ثلاثة خطوط
وهي مادة الكروموسومات (وهي باقالات الصفات الوراثية) ونتائج
لشعاع عبيد ومادة الأكتوميسين !

هل هذه معادلات الكيميائية هي محاولات للوصول إلى تركيب مادة
الأكتوميسين

كنت ملاحظت كلها مكتوبة على شكل خواطر عابرة .. ولكنها
فتحت أدمي عدناً من الغوامص التي يعيش فيها ذلك الباحث العريب
ما ندى يجري وراءه دميان ؟



إن ما يجري وراءه راغب دميان هو لاكتشاف سر الحياة ..
ن الكلمات القليلة المكتوبة في النوتة تشير إلى هنا .. فحوله تدور
حول سر التفاعلات الكهربائية الكيميائية في الخلية العصبية

كيف تتولد التنبيهات الكهربائية في الخلية العصبية ؟ . وكيف تنتقل هذه
لتنبيهات إلى العضلات .. وكيف تنقبض هذه العضلات في حشرة بدائية
حمسائة مرة في الثانية ؟ .

من أين تنبع هذه القوة المحبونة التي تحرك جناح حشرة مثل مروحة
مناثرة ؟ وما سر هذه المادة السحرية « أكتوميسين » التي تتألف منها العضلة
الحية ؟ « والكروموسومات » ؟ لعز الحياة المظلمة تلك القضبان الدقيقة
في أنوية الخلايا ، والتي لا ترى إلا بأقوى الميكروسكوبات .. تلك القضبان
تخوي على كل الصفات الوراثية للإنسان وما هو أكثر - أنها تكاد

تكون أرشيفاً لتاريخ الحياة كله مسجلاً على المادة الحية . منتقلاً معها من جيل إلى جيل .

إنه يحاول أن يكشف سرها بالتأثير عليها بالإشعاعات .

وأخيراً تلك الزائدة الغامضة في المخ البشرى (الجسم الصنوبرى) التى تتدلى مثل ترمسة صغيرة في وسط المخ بلا وظيفة وبلا دور معروف . هل يمكن أن يكون قد وصل إلى سرها ؟ ! ماذا اكتشف ذلك الرجل المضمحل الشاحب ؟

إنه يسرق .. ويقتل .

نعم .. ربما كانت هذه الوفاة التى بدت وفاة طبيعية هى جريمة قتل دبرها بوسائله ليحصل على مخ الضحية .

ربما كانت تجربة رهبة من تجاربه .

وربما كان في طريقه الآن إلى جريمة أخرى .

كنت أقود عربتي بسرعة في طريق مصر - إسكندرية الزراعى ذاهباً إلى طنطا في مشوار عائلى .

وكنت غارقاً في تساؤلات لا آخر لها وقد استقرت قدمي على دواصة البنزين على آخر سرعة حينما ظهرت أمامي فجأة عربة تقل كبيرة . وضغطت بآخر قواي على « الفرملة » وانحرفت في الاتجاه الآخر لأنزل أما والعربة في حقل محروث حديثاً .

وكنت حسن الحظ لأن العربة غاصت في هدوء وأمان في التربة المحروثة .. وكنت لي السجادة من موت أكيد .

وتصبب العرق على وجهي وشعرت بأصابعي باردة تلحية مبتلة وروح

أمسح وجهي بأنامل مرتجفة .

وكان قد تجمع حول العربة بعض الفلاحين واحول يدفعون العربة التى عرست في التربة الرملية .

وخطوة .. خطوة .. بدأت العجلات المغروسة تتحرك .. ومددت يدي لأدير « المارش » .

وحانت مني التفاتة إلى عداد جيكر الذى وضعت على عارضة العربة تسعت عيناي من المفاجأة .

كان مؤشر العداد قد اندفع على الميناء مشيراً إلى وجوه إشعاعات راديو من قرب .

معنى ذلك أن محباً دميان عن قرب .

إشعاعات راديو من قرب !

معنى ذلك أني على بعد خطوات من السر .

ربما دورة أو دورتين بالعربة في المنطقة .. وأستطيع أن أحدد بالضبط مصدر تلك الإشعاعات .

ونظرت حولي ..

كان الطريق الزراعى خالياً ..

لم تكن هناك آثار لمساكن سوى « فيلا » صغيرة على بعد خمسمائة متر من المكان ..

لم يكن هناك مجال لاحتالات عديدة .

وإنما هو احتمال واحد في الغالب ، هو أن هذه « الفيلا » في هذا

الطريق المقطوع هى المحب السرى .

وكان معنى هذه الإشعاعات القوية أن الراديو موضوع فيه مكان مكشوف وليس محفوظاً في خزانة الرصاصية التي تحجب الإشعاع .. وردد كان موضوعاً في تجربة بالفعل .

وتوترت حواسي كلها وأنا أطلع إلى النوافذ ذات الستائر المسدلة وأوقفت العربة على جانب الطريق على بعد كاف حتى لا يثير الريبة . وتسللت إلى « الفيلا » لأصعد السلالم القليلة في المدخل .. ثم أقف أمام الباب أتلفت حولي في حيرة . هل أدق الجرس ؟

لا ..

إن أي إشعار بطارق غريب سوف يعطى الرجل وقتاً كافياً ليخفي معالم كل شيء .

لا بد من وسيلة للمفاجأة ..

لا بد من الدخول من طريق آخر غير الباب .

لو أني التفتت بالعربة حول « الفيلا » ووقفت بها تحت البلكونة الخلفية لأمكنني أن أصعد فوق العربة وأقفز منها إلى البلكونة كالقطة بأقل جهد يدكر .

وفي لحظة كنت أتموز بالعربة ، وأقف بها في المكان المناسب وأصعد عليها ثم أقفز لأصبح في البلكونة لا تفصلني عن الداخل إلا ستائر حريرية ههافة

وأزحمت الستائر في حذر وأدخلت عيني متلفتة لأكتشف أن البلكونة لغرفة نوم ، وأن غرفة النوم خالية

كانت هناك صالة واسعة وممر وغرفة مضاءة في آخر الممر ، وبنات الغرفة مفتوح . ويبدو منه جهاز « أتوكلاف » كبير . إنه المعمل .

ولا بد أنه عاكف الآن على العمل .

هل أدخل ؟

أو أحتسب حتى يخرج لأفتش بحرية في كل شيء ؟ وآثرت الاختفاء وعدت إلى غرفة النوم لأنمذ تحت السرير وقد أصحنت بكل أذني إلى كل حركة .

ومرت ساعة كثيرة شعرت فيها أنني أتثلج .

ولم أسمع محال هذه الساعة الطوية حركة واحدة تدل على وجود حياة إلى جوارى .

ومكرت ..

ربما كان في الخارج وقد أشعل النور قبل خروجه ليوهم أي لص من نصوص الطريق أنه موجود .

وخرجت من مخبيء بهذا الأمل الضعيف وتسللت إلى الصالة ثم إلى لباب المفتوح . لأطل في خوف .. واكتشفت أن المعمل كان خالياً طول نوقت .

وبعد دقيقة أخرى من التجول الحذر تيقنت أن البيت خال . بالفعل . وأن صاحبه في الخارج .

ولم أشأ أن أضيع لحظة .

كان المعمل هو هدفي .

[illegible]

والجالس في هذا الكرسي يمكن أن يكون هدفاً لأشعة مركزة تأتيه من
فيه وعن يساره ومن خلفه ... ثلاث حزم من الأشعة تنعكس من ثلاثة
عواكس لتتركز في نقطة واحدة في رأس الجالس على الكرسي .. يمكن أن
يحدثها المشرف على العملية مسبقاً عن طريق الروافع المتعددة المحيطة
بالكرسي .. وهي روافع مزودة ببراجل دقيقة لقياس قطر الرأس ومحيطه .
جهاز غريب .. لم يسبق لي أن رأيت مثله .

ولاحظت أن « البارافان » يؤدي أيضاً إلى باب في الخلف ، والباب
مفتوح على غرفة مربعة .. بها جهاز آخر غريب يشبه مفاعل ذرى صغير .
ولكنه ليس مفاعلاً ذرياً بالمعنى العلمى المفهوم ..

وفى مركز الجهاز بومبة راديوم .. بها إبر الراديوم المفقودة .. وكان من
لواضح أن ذلك الرجل توصل إلى عدة مراحل يحطم فيها المادة إلى
إشعاعات

وأنه يستخدم هذه الإشعاعات فى تجاربه على المخ الحى .. ولكن ما
الداعى إلى مولد الكهرباء الاستاتيكية .. وما دوره فى العملية .. وأجهزة
التقطير والأصباغ والمحاليل العيارية ومواقد بتزن العديدة ! ؟ ..
لا بد أن هناك عملية استخلاص كيميائية أخرى لها أهميتها .. ووضعت
عيني على الميكروسكوب .

وفوجئت برؤية الميكروسكوب يسبح فيه عدد هائل من الحيوانات
المنوية

لم تكن حيوانات منوية آدمية .. وإنما حيوانات منوية مستخلصة من
مثنائات ضفادع فى الغالب .

وتأكد استنتاجى حينما رأيت بويضات ضفادع متعددة فى نفس المحال
الميكروسكوبى .

كان معنى هذا أنه يحاول مشاهدة عملية تلقيح البويضة على الطبيعة
وعملية الانقسام والتخليق الجنينى . ودور النواة والكروموسومات فى
عملية

وكان مؤشر الميكروسكوب يشير بالفعل إلى نواة البويضة وإلى

كروموسومات .. وفهمت من وجود سحاحة بها سائل أزرق إلى حوار
لميكروسكوب أنه يحاول أن يجرب دور المؤثرات الكيميائية المختلفة على
الكروموسومات .

إنه معمل باحث متعمق فى الطبيعة الحية ..

وكأت على المائدة كراسى مذكرات ..

ومددت يدي لأفتح الكرسي .. ولكن يدي تجمدت مكانها .. فقد
سمعت المفتاح يدور فى قفل الباب وأرجل مسرعة تدخل ..
وتلفت فى ارتباك أبحث عن مكان أختبئ فيه ..
ولم أجد أمامي إلا « البارافان » .

وأسرعت أختبئ خلفه وكتمت أنفاسي .. فى الوقت الذى دخل فيه
دميان ومعه رجل آخر كبير الرأس .

وكان دميان يبدو أشد نحولا وأشد شحوباً مما كان ..

وسمعتة يقول لزمائره وهو يشير إلى الكرسي الذى يشبه كرسي طبيب
الأسنان .

- هذا هو الجهاز الذى سيشفيك من الصلع .

- ربنا يجعل فى يدك الشفا .

- يا ذن الله الاعتماد على الله .

وأخذه من يده مردفاً :
.. .

- اخلع الطاقة من على رأسك وتعال اقعد هناك وأشار إلى الكرسي .

وخلع الرجل الطاقة ولاحظت أن رأسه أصلع تماماً .

وعرفت الخدعة ..

إن دميان استدريج الرجل الأصلع يزعم أنه سوف يعالجه من الصلع
وهذه الطريقة سوف يضعه على الكرسي ويسلط الأشعة الجهنمية على مخه .
ويكيفه كما يشاء في الوضع الذي يجدره . ليكون موضوعاً لتحرفته وربما
خرمته فيما بعد حينما يصبح المرحوم ممحاً في أحد أحواض الفورمالين المترامة
على المائدة ..

كست على وشك أن أشهد بعيني جريمة قتل بشعة .
وفكرت سرعة .. على حين جلس الرجل الأصلع على الكرسي ، وأخذ
دميان يقيس رأسه بالبراحل العديدة المثبتة في الروافع .. ويدوّن المقاييس في
قوة .. ثم يعدل من وضع أنابيب الأشعة ويغير الزوايا العاكسة لضبطها
على المسافات المطلوبة .

ثم فتح أحد الأدراج وأخرج حقنة معقمة .. ملاًها بسائل أزرق .
بشبه السائل الذي في السحاحة ، وحقنها في وريد الرجل ... ونظر إلى
ساعته قائلاً :

- بعد عشر دقائق سوف أبدأ العلاج .
وسألت نفسي وأنا أفكر بسرعة : ولماذا عشر دقائق بالذات ؟
وأسمعتني ذاكرتي الطيبة .

إن هذه هي الدقائق المطلوبة لتصل المادة المحقونة في الدم إلى الحسم
الصنوبري في المخ ويبدأ فعلها .. وبعد هذا يبدأ العلاج ..
ولن يكون العلاج إلا تسليط هذه الأشعة الجهنمية من زوايا ثلاث على
حسم الصنوبري .

بعد دقائق تبدأ جريمة رهيبة .. وأنا واقف أتفرح .
لا بد من عمل ..
لا بد من عمل ..

ولكن الانتظار طال ولم يعد التيار إلى حاله .. وأنا أتففس الصعداء في
محسى ..

ومرت ساعة ترقب طويلة مملة .
ورأيت دميان يفضى بطارية صغيرة ويقول لزمته :
- يبدو أن التيار سيبطل مقطوعاً طول الليل ..
يحسن بنا أن نؤجل العلاج للغد .
- كنت أريد أن أنتهى من العلاج وأستريح .
- ليس أمامنا حل آخر .

ورأيت الاثنين يخرجان .. وصمت الباب يفتح .. وخطوات الاثنين تنزل
السلم .. وتغيب في الطريق .
وفكرت بسرعة .

إن وجودى وراء البارافان يعطينى الفرصة لأراقب كل ما يجرى في الغرفة
ويعطينى الفرصة في نفسى الوقت لأن أطفى النور وأهرب في الظلام من
الباب الخلفى إذا دعا الأمر
كان مكاناً مناسباً يجعلنى وسط الأحداث باستمرار
ولم يكن فى نيتى أن أواجه راغب دميان .
كنت أريد أن أتركه يعمل بجهته تحت وهم أنه وحيد في معمله ..
لأعرف منه كل شيء .

ولهذا قررت البقاء في مكاني .
ومرت دقائق ظنتها ساعات .

ثم سمعت المفتاح يدور في الباب وخطوات دميان داخله ..

الآلة المهنمية ١

انقضت الدقائق العشرة ..
وبدأ دميان يوصل التيار الكهربائى ويدير أزرار الجهاز ..
وأضامت أنابيب أشعة المهبط الثلاث بوهج خافت .. وارتفع أزيز
الآلة المهنمية .
وتلفت حولى في دعر .
واكتشفت أن سكية التيار الكهربائى ورائى .
كانت أشبه بطوق نجاة يلقى إلى في آخر لحظة .
وبسرعة فصلت السكينة فانطلقت الأنوار وغرقت الغرفة في ظلام
دامس وسمعت دميان يقول في ضجر :
انقطع التيار مرة أخرى .
ثم يردف في غيظ وقد أعد نفسه للانتظار :
- أمرنا الله ..

كان. وحده هذه المرة .. وشعاع البطارية الصغيرة يلمع في يده .
وبحركة خفيفة أعدت السكينة إلى مكانها .. فتلاأت الأنوار في
المعمل ، وسمعت دميان يمحض شفتيه في ندم :
- لو أننا انتظرنا قليلاً ..

ورأته يفرك يديه ويبطر إلى المصباح المضيء في عتاب .. ثم يفتح
الكراسة ويطل في الميكروسكوب ثم يلتق بالشرجة التي عليها الحيوانات المنوية
في البلاعة .. ويفتح صندوقاً يستخرج منه ضفدعة حية يشقها بمشرطه
بسرعة .. ليفرغ ما فيها من حيوانات منوية على شريحة جديدة يضعها على
الميكروسكوب ثم يمضي يلاحظ .. ويدون ملاحظاته بسرعة .

ويمد يده إلى السحاحة ويفتح صنبورها فتتزل قطرات قليلة زرقاء من
القطارة على شريحة الميكروسكوب .. ويعود إلى الفحص وتدوين
الملاحظات .

وبعد ساعة أخرى من العمل المتواصل رأته يقف وينظر حوله متعباً
ويمسك برأسه ويفركها ويفرك عينيه كأنما يحاول أن يطرد نعاساً .. ثم رأته
يخرج حقة من الغلاية يملؤها بالسائل الأزرق ثم يعرى ذراعه ويضغط فوق
مكان الوريد بقطعة من الجلد ثم يعرس الإبرة بمهارة وسرعة ويحقن نفسه
وراح ينظر إلى ساعته وبعد مرور الثواني والدقائق .

وبعد عشر دقائق كان يتجه نحو الآلة الجهمية ثم يجلس على كرسيها
ويوجه أنابيب الإشعاع الثلاثة ، واحدة إلى جبهته ، والثانية إلى جانب من
رأسه ، والثالثة إلى الجانب الآخر .. ثم يضغط على الأزرار فتضيء
لأنابيب الثلاثة بوهج خافت ، ويدوى ذلك الأزيز الرهيب .

وتحمد الدم في عروق وأنا أشاهد مايجرى أمامي
إنه يجرى تجربة الموت على نفسه
إنه نفس السائل الذي حقن منه في وريد الرجل .. ربما نصف الكمية
ولكنه نفس السائل

وهاهو ذا يجلس مكانه ويسلط الأشعة الرهيبه على محه
هل بإمكانه أن يتحكم في مقدار حرعة الأشعة عن طريق هذه الأورار
إلى جواره .

أظن أنه بإمكانه أن يفعل هذا فهناك أكثر من عداد للأمبير والفولت
على واجهة الجهاز

ورأته يدخل في نوبة تشنج فتصلب عضلاته كأعواد من حديد وتظهر
في عينيه تلك النظرة الهائلة من الذعر وكأنه يرى أبواب الجحيم تفتح أمامه
ثم يدخل في غيبوبة كاملة يسترخى فيها كأنه في نوم عميق .
ثم سمعته يتكلم .

كان يتكلم بنفس النبرات الهائلة الواضحة كما كان يتكلم حينما اعترته
لوبة في عبادتي

وكان يتكلم باللغة الأسبانية السليمة كما حدث تماماً في المرة الأولى ..
واستطعت أن أترجم ذلك الكلام الذي يوحه إلى دون ساستيان
كاميللو .

- يا صديقي إن ما حدث في ذلك اليوم مازل محفوراً في رأسي .. لم تكن
مفاحاة لي أن يفجر اللغم في الوقت والساعة التي انفجر فيها . لقد كنت على
علم بكل شيء .. وكنت أرى اللغم أمامي . كنت أراه يعقب هاتين

وتغيرت نبرته تماماً وكأنما قد لبسه شخص آخر.. شخص أجنبي النبرة
لاهث الأنفاس.. هو دون سياستيان..

- لا أصدق.. يا إلهي.. هل يمكن أن يكون هذا معقولاً..

- هناك حالة نفسية لا يعرفها إلا من عاش في الحرب مدة طويلة..
حالة تستبد بالجلدى فإذا به يندفع ليلقى بنفسه إلى الهلاك وكأنما يحذره دافع
باطنى إلى الخلاص بنفسه من كل هذا الجنون.. فإذا به يدخل في خط النار
ويمشى على الألغام ويسعى إلى الموت مفتوح الذراعين..

- دون ميجولو فارجا أنت دخلت بنا في حقل ألغام.. وأنت تعلم أنك
داخل في حقل ألغام؟
- نعم كنت أعلم..

- دون ميجولو فارجا أنت مقبوض عليك..

وسمعت ضحكة مجلجلة من دون ميجولو فارجا..

- تقبض على ماذا؟؟!!.. ألا ترى أنى مقبوض على.. بالفعل في
جاكّة جيس وينطلون جيس منذ شهور وأنى لا أحرك ذراعاً ولا ساقاً!!؟
تقبض على الجيس لتضعه مرة ثانية في الجيس؟

وعادت الضحكة المجلجلة تلوى مرعبة في الغرفة:

- وكيف ستنفذ أمر القبض يا جاويش سياستيان كاميللو.. أنسيت أنك

تنام إلى جوارى مقطوع الذراعين في الجيس مثلى..

وسمعت دون سياستيان يزار..

- سوف أقبض عليك بأمر القانون

وعاد دون فارجا يضحك..

-القانون انتهى العمل به من زمان أيها الحاويش.... أنسيت أننا هزمنا
في الحرب.. وأن هناك قانوناً آخر الآن في الحكم..

وعاد يضحك ضحكته الباردة المرعبة..

-انظر حولك.... إننا الآن أسرى ولسنا أبطالاً.. وهذه الأعلام المرفوعة

ليست أعلامنا.... لقد انتهينا مع الدنيا التي انتهت..

وسمعت زئير دون سياستيان..

-أنت.. مجنون.. مجنون.. مجنون..

- ثم تحول الزئير إلى عويل وأنين وبكاء محقق وفجرات منهجدة..

-وما العمل.. وما العمل؟

- سوف نموت.. سوف نموت..

وسمعت صراخ دون سياستيان..

أنا لا أريد أن أموت.. أنا أريد أن أعيش.. أنا أريد أن أعيش

واختفى الصراخ ليتحول إلى نسيج مكتوم..

وكنت أرى دميان يهتر بالنسيج الذى يخرج من بين جنبيه..

كان من الواضح أنه مجرد أداة لهذه الأصوات الغريبة التي تخرج منه

مجرد بوق.. أو راديو.. أو أسطوانة.. أو شريط تسجيل..

هل هي أرواح..

ومن هو دون كاميللو ودون فارجا؟

هل لها وجود؟

ورأيت راغب دميان يفتح عينيه ببطء ويتلفت حوله.. ثم يمد يده في

ضعف فيضغط على مفتاح فينطلق الومض المشع ويتوقف الأزيز..

واكتشفت أن هناك جهاز تسجيل صغيراً كان يسجل ما يجري طول لوقت

وكان وجه دميان شديد الشحوب وعيناه حمرانين مثل كأسين من دم ورأيتة يجمل على ترموس صغير يفتحه ويخرج منه جرعة شرهة ورأيتة يدبر جهاز التسجيل ويستمع إلى الأصوات التي سجلها في أثناء غيبوته ويدون ملاحظات في نوتة .

ثم يتشاءب ويقوم متعباً .. وينظر في ساعة يده ويمسح على جبهته ثم يطفىء النور ويخطو إلى غرفة النوم .

ولم أتحرك من مكاني حتى سمعت صوت باب غرفة النوم يغلق . وكانت أول فكرة خطرت لي أن أسرق كراسة المداكرات ولكنني خفت أن يتقط في الليل ويدخل المعمل فيكتشف السرقة . وربما استبد به الخوف فهجرت عنياء وفقدت أثره إلى الأبد .

ولهذا آثرت أن أترك كل شيء على حاله

وانسحبت عائداً في خفة من حيث أتيت .

ومع أول نسمة من هواء الشارع البارد برق في ذهني خاطر . أن اتصل تلغرافياً بسفير مصر في أنساب ، وهو صديق عزيز . أسأله كل ما يستطيع معرفته بشأن دون ميجولو فارجا ودون سباستيان كاميللو .

وهل كانا ضمن جنود الحرب الأهلية الأسبانية وماذا كان مصيرهما . كان أملاً واهياً ولكنني تعلقت به

وكانت الساعة العاشرة مساء تدق فوق رأسي وأنا أكتب آخر كلمة في استغراف وأسلمه إلى موظف المكتب .. والمطر يتزل زخلاً في الشارع وأنا

فقد عرتني في طريق إلى البيت .. والشارع يلمع في المطر .. وعقلي ساج في لف فكرة وفكرة

هل أنا أهدي ؟

هل كان هدياً كل ما رأيت وسمعت .. هل هو كوس .. هل أنا أحلم ؟

ذلك الحديث بين اثنين لا وجود لهما .. دون كاميللو ودون فارجا . وهو حديث يبدو أنه يتكلمان من سريرين متجاورين في مستشفى . وأنهما أسرى حرب . وأنهما حرجي وموضوعان في الحبس . وأنهما بصارعان موت

وآخر كلمة في الحديث هي صرخة دون كاميللو بأنه يريد أن يعيش من الواضح أن أسبانيا لا تحوض حرباً . وأن الحديث هو حديث عن حرب انتهت . أغلب الظن أنها الحرب الأهلية الأسبانية . الحديث كنه مجرد ماضٍ بعث حياً على لسان دميان الذي كان أشبه بوسيط

هل ممكن ؟

هل ممكن أن تعيش الأصوات في الجو هذه السوت حتى تجد وسيط فتعود لتبعث من جديد على لسانه

أم أنها صرخة الإرادة المتشبثة بالحياة هي التي أعطت هذا ماضي الذي بعدم رحمة الحياة من جديد

هل هي معجزة إرادة .. وصرخة إصرار ؟

وإرادة من ؟ !

إرادة رجل مات .. ومن المفروض أن تكون إرادته قد ماتت معه
هل أنا أعود فأهدي من حديد؟
إيه لشيء مبرك حقاً



كنت أروح وأغدو في غرفتي التي أغلقت بابها .. ثم أعود فأجلس في فراشي .. ثم أقوم فأقعد أمام مكتبي .. ثم أعود فأخط بعض الحروف على لورقة .. أفكر وأكّد ذهني ، وكأني أمام لغز من الكلمات المتقاطعة لا تلتقي فيه كلمة على كلمة .. أحاول أن أستجمع الحقائق الغريبة المتناثرة في هذا اللغز المتشابك .. من أول اليوم المشوم الذي طالعت فيه وجه دميان .

جريمة ١٥ شارع ابن الوليد محذائق القبة .

والجثة المنزوعة الرأس في مقابر الروم الكاثوليك .

والمخ المقطوع قطعاً طوليّاً في حوض الفورمالين وقد نزع منه الجسم لصنوبرى ، وذلك العدد من الأنماخ المتراصة في الأحواض .

أَيْنَ رَعُوسٍ أَصْحَابُهَا .. وَأَيْنَ جِثَّتُهُمْ .. ؟

ماذا يفعل ذلك المجنون بالآلة الجهنمية التي يسلطها على رموس

صحاح ۹

وأية أشعة رهيبة اكتشفها ؟

وما هي تلك البحوث المريبة التي يجريها على الحيوانات المنوية التي يستخلصها من ضفادع حية ؟

وما هو السائل الأزرق الذي يستخدمه في تجاربه ؟

وما سر النوبة التي تستولي عليه ؟

وما حقيقة الأصوات التي يهذى بها في نومه ؟

عشرات الأمثلة وعلامات الاستفهام

وأشد ما يفرغني إحساسى بأن الرجل في طريقه إلى هاوية

ماذا يحدث لو أنه فقد عقله ؟

معنى هذا أن نقطع صلتنا بالحقيقة إلى الأبد .

كان لابد من وسيلة لاكتشاف كل شيء قبل أن يفوت الوقت ولكن كيف ؟

كيف يمكن أن نعرف ما بداخل جمجمة ؟

كيف نكشف ما يدور في عقل ؟

كنت أروح وأجىء في عصبية حيناً دق الباب ودخل الخادم يحمل تلغرافاً

كان هو التلغراف المنتظر من أسبانيا

وقرأت الرد المكتوب باختصار شديد :

« دون سباستيان كاميللو مصارع ثيران مات في الحرب الأهلية الأسبانية

ودون ميجولو فارجا لم يمكن التعرف عليه » .

إذن فهي الحقيقة

لم تكن الأصوات هذياناً .. ولم تكن الأسماء اختلاق عقل مجنون وإنما هي أسماء لناس عاشوا بالفعل .

وما دار من حديث هو تحصيل حاصل .

لقد دار هذا الحديث ذات يوم منذ سنوات بين أسيرى الحرب دون كاميللو ودون فارجا ، وهما يصارعان الموت في مستشفى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية .

وما فطه دميان هو أنه التقط هذا الحديث من العدم

كيف تمت هذه المعجزة ؟

عن طريق عضو مجهول من أعضاء المخ ، غالباً عضو معطل عندنا هو الجسم الصنوبرى .. استطاع دميان أن ينبه بقذائف الإشعاع وبالمادة الكيميائية التي يحقنها في الدم .. فإذا به يتحول إلى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضي .

رادار يكشف شبكة الحوادث ويحرق حجب الزمن

أمر يشير العجب حقاً !

ولكن من يدرى ؟

ماذا لو فكرت دودة غمياء أن في جهازها العصبى البدائى بذرة السمع والبصر ؟

ماذا لو فكرت أنها ذات يوم سيخرج لها جفدة لهم عيون وآذان .. لا شك أنها تعجب ولا تصدق .

وكذلك حالنا نحن العميان بالنسبة للمستقبل .. لا تصدق أنه يمكن أن يرى في الزمان كما نرى في المكان .. وأن التاريخ يمكن أن يتحول بالنسبة لنا

في مسرح مرئي . وفي لحظة جهر عجب يمكن . بسضع ماضي
، يرى ما حدث فيه . أي عين
به أمر مشرقاً

إن وجه الدنيا لينعير كثيراً إذا قدر لنا أن يتسع نطاق رؤيتنا إلى هذا
مدي ، فري الماضي كما يرى الحاضر ، وسمع الأحداث التي ولت وغرت
كما نسمع الأحداث التي تخفى حولنا الآن
إننا أصبح كمن لا نرى .. كلابية

ولكن كيف يمكن ذلك ؟
كيف يمكن أن أصعب يدي على الله
كيف أصل إلى ما كشفه ذلك الرجل
لا بد من حيلة .

وكنت أعرف الطريق جيداً هذه المرة .. فقد أخذت طابعا لثقب
ناشع واصطلعت لي مفتاحاً خاصاً
ودحت حسنة . وكان دميان في الخارج .
وكان كل شيء في العمل على حاله

وكنت هناك عناية للحقن تغلي فوق سخان كهربائي
ولاحظت وأن أصعب يدي على جهاز الأشعة أنه ساخن . مما يدل على
أنه كان في حالة تشغيل منذ مدة قريبة

ومن أن فكر كيف حدث هذا . كنت أسمع خطوة دميان على السلالم
وصوت مفتاحه يدور في الباب
وأسرعت لأحتج وراء الباب

.. بيت دميان بدخل . وفي يده لفافة كبيرة

ورأيت يضع اللفافة على المائدة ويفتحها

كان بداخلها صندوق زجاجي فيه عكسوت .. واحد من تلك العاكس
صغيرة التي تكثر من المناطق الاستوائية الحارة .. وسرت في مدى قشعريره
.. نظرت رأس الحشرة وإلى العيون العديدة الصغيرة التي تملأ وجهه
وكان يجبل إلي أن هذه العيون ترمقني في محسني .

وبين لحظة وأخرى كان العكسوت يدور حول نفسه ويدبر رأسه المتعددة
لعيون كأنها قبة مرصد ملكي . ويظهر لي محتويات الغرفة
وكنت أرتحف في مكاني حينما تقع عيون الكثرة على . ولم تدم هذه
اللحظات طويلاً .. لأن دميان - وفي يده آلة تشريح عربية تشبه شوكة
سنة وعين مستأنفة فتح صندوق . وعرض شوكة في وجهه
عكسوت . وعشره صغير وضع لعكسوت حتى قطع طويلاً
.. بدأ بعمل مشروط في مهارة وسرعة في منطقة الرأس
وبعد لحظات كان يتزعج كتلة هلامية بيضاء كروية الشكل ويضعها في
أسوية احتبار بها محلول

ورأيت الكتلة الهلامية تدوب بالتدريج في المحلول لتتحول إلى مستحلب
بصر

ورأيت دميان يشرع في إضافة عدة محاليل إلى المستحلب ، ثم يضع
البريق في جهاز يعمل بقوة بطرد المركزية ليفصل الرواسب وحدها
.. عيون يرتق ، حده

بعد ذلك جهر عدة دقائق . ثم يضع الرواسب في دورق زجاجي

ويضيف إليها قطرات من حامض كبريتيك مركز وكحول ، ثم يكمل الدورق إلى منتصفه بالماء المقطر .. ثم يبدأ في عملية أشبه بالتقطير .. كان يضيف فيها قطرات من محاليل عدة

وبمضي الوقت احتلقت على تلك العمليات الكيميائية لكثرتها فلم أعد أستطيع متابعة تفصيلاتها خاصة أن أغلب المحاليل التي استعملها كانت محاليل مجهولة بالنسبة لي .. كل ما فهمته أنه يعالج هذه الخلاصة معالجة كيميائية شديدة التعقيد .. ليخرج في النهاية بستيمرتات قليلة من سائل أصفر .

ورأيت أنه يتناول هذا السائل بأبد ضئيلة ليضعه في الأتوكلاف ثم يضغط ساعة الأتوكلاف على وقت معين .. ثم ينظر حوله في راحة ويتأهب ويغادر المعمل ذاهباً إلى غرفة نومه

كان يقوم بكل خطوة في هدوء وثقة .. مما يدل على أنه يعرف سلفاً ماذا تعني هذه الخطوة .. للدرجة التي يستطيع فيها أن يترك المعمل ليذهب وينام وهو مطمئن أن كل شيء سيسير على مايرام .

ومضت دقائق

وسكت الحركة في غرفة النوم

وكان معنى هذا أنه نام .

ولم أستطع أن أقاوم فضولي .. فخرجت من مخبئي .. وكان أول ما انجهت إليه هي ساعة « الأتوكلاف » لأعرف على أي وقت ضبطها . ورأيتها مضبوطة على العاشرة .

معنى ذلك أنه أعطى نفسه ساعتين راحة .

ومعنى ذلك أن أمامي ساعتين قبل أن يلقى جرس « الأتوكلاف » فيوقفه .. ساعتان .

وقت طويل .. ولكنه بدا لي في تلك اللحظة قصيراً جداً . نظرت إلى العنكوت وإلى رأسه المشقوق .. وإلى الحفرة الشاغرة حيث كانت تستقر الكتلة الهلامية التي انتزعها .

لم يكن مخ العنكوت كما خيل لي .. ولكن غدته اللعابية . لقد فتح دميان رأس العنكوت ليحصل على غدته اللعابية .

كان هذا أمراً غريباً بالنسبة لي !

لماذا يتجشم دميان كل هذه المتاعب ليحصل على الغدة اللعابية لعنكوت ؟

وفتحت كراسة المذكرات .

ومضيت أقلب صفحاتها .. وكانت أغلب الصفحات مكتوبة بشفرة كيميائية خاصة .. لا سبيل إلى معرفتها إلا بمعرفة مفتاح الشفرة .

وفي صفحة رأيت بعض عبارات بالقلم الرصاص :

• خلاصة من براعم نبات الأكاديبيا .

• سرعة نمو البيضة الملقحة (الجين) في محلول ملحي قلوي .

• الهرمونات كعامل مساعد .

• لا يمكن رفع درجة حرارة المحلول أكثر من أربعين درجة وإلا ماتت

جميع الحيوانات المنوية .

وكلمات أخرى مشطوبة لم أستطع قراءتها .

كان من الواضح أنه يحرق مجوهراته في فروع مختلفة كل الاختلاف
مسألة حيرتني عذبة حيرة

حاولت أن أخرج نحيط مشترك يمكن أن يربط الغدة اللعابية لعنكبوت
والحيوان المنوي بالبيضة المنقحة في الحنين بالبراهم في نبات الأكاديبيا .

أية رابطة يمكن أن تربط هذا الخليط ؟
نعم .. أية رابطة ؟
يبدو أن هناك خطأ بالفعل .

حيل إلى أن هناك رابطة .. فجميع هذه الأشياء تشترك في صفة الحيوية
، نمو لسريع

لنرسم في النبات هو أكثر أجزاء النبات حيوية وأسرعها نمواً . وكذلك
حين . وكذلك الغدة اللعابية للعنكبوت : فهذه الغدة هي التي تصنع
الحويط التي يفرز بها العنكبوت بيضه ، ولهذا فهي أكثر الأعضاء نشاطاً
وحياة والحيوان المنوي هو الآخر يحمل بذرة التحدد والحياة في كيان
عضوي الضليل كأكثر ما تحمل حلية نشطة

إن دميان يبحث إذن في سر النشاط والحياة والنمو والتحدد . ويختار
خامته الحية من الأعضاء التي تتصف بهذه الصفات .

وهو يهدف من عمليات الاستخلاص الكيميائي العنوز على المادة
الصخرية . المادة الناعمة للحياة والنماء والنشاط .

إنه يبحث عن لمنه لطيفي للحياة
وفتح الأتوكلاسي

كانت فيه عدة حلاصات مرفقة .. على كل وحدة رقعة وحروف
بالشعرة عن مصدرها

وفي دكر رأيت أنوبة فيها السائل الأزرق الذي حفص به نفسه
وتناولت الأنوبة
وشممت رائحة غريبة .

كان السائل له رائحة غريبة أشبه رائحة الثوم .

وبينا كنت أتفحص السائل سمعت حركة ورفعت عيني لأهأجأ بدميان
واقفاً أمامي

كانت عيانه حمراوين مثل كأسين من دم . وحمويه وارمة . ونخده
متفخين .. وشعره مشعناً .. وكان يخطو ببطء كأنه يتعلم المشي .. ويكاد
يقع في كل خطوة .

وكان يفتح فمه ليحاول الكلام فلا يستطيع الطق .. وكان يمد يده في
ذعر إلى الأنوبة التي في يدي . وترتجف شفتاه . وتظهر على حابييه
عوة .

وزرنيته بأخذ نفساً طويلاً كأنه عطشان إلى الهواء . ثم ينهوى على
أرض

أسرعت إليه .. كان يلهث .. ويمتدح عييه ويعتقه . ثم يغيب لحظة
عن وعيه .. ثم يعود ينظر حواليه ويهمس :

- أنا لم أقتل أحداً . أنا قتلت نفسي .. الذين ماتوا لم أقتلهم ولكنهم
ماتوا لأن عمرهم انتهى بعد أن عاش كل منهم مليون عام . ماذا كانوا
يصنعون من الدنيا أكثر من هذا . أنا أيضاً عشت مليون عام . أنا رأيتك

مذ ولدت أول مرة .. أنت لا تعلم أنك ولدت مرات ومرات .. مرات
كثيرة لا تعد ، وأنت عجز .. عجز .. عمرك مثل عمر الهرم الأكبر .
وبدأت عيناه تغيان وبدأ يسرح ويهوى في عالم آخر وينظر إلى كأنه ينظر
من خلالي إلى فراغ .



كان دميان في حالة عقلية عجيبة ، أشبه بالغيوبة .. ولكنها ليست
عبوثة . بل هي قريبة من اليقظة والتفتح والشفافية والحلاء البصرى
كان ينظر إلى الأشياء وكأنها تشف له عن معان وأشكال غير أشكاهها .
وكان ينظر إلى وجهى ويتسم كالأطفال ويهمس :
- أناديك بأى اسم .. أنت لك أسماء كثيرة أكثر من ألف اسم ..
أناديك باسمك أيام المالك .. أم أيام الأثران .. أم أيام الخلافة الفاطمية ..
تصور أن اسمك كان في يوم من الأيام « مهلول الحنى » .
وضحك ..

ونخيل إلى أن الاسم يبدو مألوفاً بالرغم من غرابته ..
وأردف دميان وهو يتسم :
- مهلول .. مهلول .. تصور .. أصلك كنت مهلول الخليفة .. لمهلول
لذى تشقلب أمامه لتضحكه .. كنت قصيراً طول ذراعى هذا .. نعم

وهذا أنت أراك أمامي الآن وأنت تشقلب زمان (وأغرق في الضحك)
كنت ضريباً جداً أيها الهلول
ثم عاد ينظر إلى في وقدر .

- الدكتور م . دود دكتوراه في جراحة المخ من برلين .. رجل علم
محترم . يقف له كل من يراه . أين هو من بهلول الخليفة .. تاريخ .. كل
منا تاريخ كل منا حكاية طوفا مليون سنة . ألا تريد أن تعيش مليون
سنة .. أما عدى كسير من يأخذه يعيش مليون سنة يعيش للماضي الذي
مات . ويذهب صفحات كتاب الدنيا كله

إن مع شيء عجيب

أنت خصصت في جراحة المخ .. ولكن مثل كل المتخصصين لا تفهم
شيئاً . إن المخ عالم كبير .. أرشيف .. فهرس .. مرجع شامل . كل يوم من
أيام التاريخ مكتوب به ورقة في محك من الأزل
من مشأ الحياة . كل يوم مدون . ورقة بورقة
هل تريد أن تقلب أوراقك ؟

هل تريد أن تعيش تاريخ كل الأزمان ؟

وسكت لحظة وأمسك برأسه بين كفيه وظهر على عينيه الألم ..
وعامت نظراته .. ثم عاوده اللهاث ... ورأيت حدقتيه تتسعان
وخرجت الكلمات من فمه كالصغير الخافت المتقطع

- لا أمل . أنا سوف أموت . ! .. أموت كل شيء معي أمامي
الدنيا تصبح ظلاماً .. النور .. النور .. الدكتور داود الأكسير
الأشعة .. لا

وأمسك برقبته وهو يتلوى كأنما هناك أيد تخنقه وهو يصرخ في صوت
كالفحيح :

- أنا لم أقتل أحداً .. أقول لكم إنني لم أقتل أحداً .. أنا وهبت كل
واحد مليون سنة .. مليون سنة .. القليل الحقيق هو أنا .. أنا الذي أموت
الآن ولا أجد لحظة .. لحظة واحدة أعيشها . الدكتور داود الأكسير ..

وتلقته على صدرى وانطلق لسانى الذى عقده بالفرع

- أين هو الأكسير ؟ ..

- الأكس ...

- ما هو تركيبه ؟

. وسكت وأغمض عينيه على حين رحت أهزه في عنف وأصرخ :

- تركيبه .. أرجوك .

وخرجت كلماته مفككة :

- تركيب .. ب .. ب .. ب .. ب ..

وألقي برأسه إلى الوراء ولفظ نفسه الأخير . مات ..

لم أصدق ..

لمست عينه .. لم تطرف ..

كانت حدقاته تلمعان كالزجاج . وتحمقان في الفراغ ..

انتهت حياة دميان ..

مات آخر أمل من آمالي على شفته

ونظرت حولي في فرع ..

وأدركت الحقيقة الرهيبة كلها دفعة واحدة .

إلى الوارث الوحيد للسر
لا أحد يعلم حياة دميان وموته سوى
كيف أنصرف ؟

إني ساكن مع حثة في « فيلا » على الطريق الزراعي
ورأيت نفسي أفكر كطبيب .

إن الحصول على كلمة واحدة من دميان أصبح مستحيلاً ولكن .
ولكني أملك جسده .
أملك مخه .

أستطيع أن أعرف بضربة مشروط ماذا حدث بداخل هذا المخ الذي
أصبح يرى الماضي ويحترق حجب الزمن

ورسالتى كرجل علم تقتضى مني أن أفعل شيئاً .

وشعرت بالوقت يمضى وكأنه قطار مسرع تدهمني عجلاته .

كان لابد من العمل بسرعة قبل أن تتيسر الأنسجة .

ونظرت إلى حقيبة آلات التشريح ، وإلى المشروط الذى كان يعث في
عنكوت منذ ساعة مضت

وغلب فضولى العبدى على خوفى . فتناولت المشروط وبدأت أعمل
سرعة .

واحتجت إلى منشار لقطع العظم .

وكان في الحقيبة أكثر من منشار واحد

لا شك أن دميان كان يقوم بهذه العملية كثيراً بدليل وجود هذه

المناشير

وبعد ثلاثين دقيقة من العمل المحموم استطعت أن أصل إلى المخ .
كان يبدو عليه الاحتقان . وكانت الشعيرات الدموية متمددة بشكل
ملحوظ .

وكان أول شيء لاحظته حينما قطعت المخ طولياً أن الجسم العسبرى
ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعى

وانترعته في حذر ووضعته في محلول ملحي .

كان السر كله كامناً في هذه الترمسة الصغيرة .

وشعرت أن الجزء الباقى من العمل هو أخطر الأجزاء ، أن أقطع مقاطع
ميكروسكوبية في هذه الترمسة ، وأفحصها فحصاً ميكروسكوبياً لرؤية
التحولات التى حدثت في خلاياها

وكنيت أتوقع أن أجِد المعدات اللازمة ، فهذه عملية كان يقوم بها دميان
بانتظام كل مرة .

وكان توقى في محله ، فقد وجدت في ركن جهازاً حديثاً لقطع المقاطع
المطلوبة ، وكأنما كان دميان يعلم احتياحاتى كلها فوضع كل شيء في متناول
يدى .. وبدأت أقطع عدداً من المقاطع وأصبغها تمهيداً لدراستها تحت
الميكروسكوب .

وحينما وضعت عيني على عدسة الميكروسكوب لأرى أول مقطع .. كان
المظهر الذى رأيته منظراً مألوفاً .

كانت الخلايا أشبه بالخلايا السرطانية .

لا شك أن هذا المقطع هو نفس المقطع الذى رأيته في شقة ١٥ شارع
بن الوليد تحت الميكروسكوب .. وساعتها خيل إلى أنه سيج جيسى

لم يكن نسيجاً جينياً، لقد كان شريحة من الجسم الصنوبرى .
هل هو سرطان ؟

لا ليس سرطاناً .. بدليل عدم وجود انقسامات في الخلايا .

وإنما وجه الشبه بينه وبين السرطان هو حيوية الخلايا ، وسرعة نموها ،
وشدة قابليتها للتصبغ .

إن الخلايا الجسم الصنوبرى في حالة انتفاضة ونشاط .. وهذا كل ما في
الأمر .

ولا شك أن دميان استطاع أن يصل إلى هذه النتيجة باستخدام الإكسبر
لدى أخذه حقناً في الدم .. وباستخدام التنبيه المتكرر بالإشعاع .
كانت القصة قد بدأت تتضح .

ولكن كيف كان دميان يستحضر أكسيره من خلاصات التراعم النامية
وغدد العكבות والحيوانات المنوية ؟

ماهى المعالجة الكيميائية بالضبط ؟

النوته تحكى التفاصيل بالشفرة .

ولا أحد يعلم مفتاح هذه الشفرة إلا صاحبها الذى سكت إلى الأبد .
ولكن للأكسبر موجود .

وربما أمكن تحليله والوصول إلى مكوناته .

وهناك جهاز الإشعاع .. الذى يمكن الوصول هندسياً إلى معرفة كنهه .
هناك أكثر من أمل .

ولكن كان هناك شيء آخر أهم من هذه الآمال بالنسبة لى .

اختبار أهم من جميع هذه الاختبارات المكثافية .. هو الاختبار

الحى ..

أن أجرب .

أن أجرب بنفسى هذه اللعبة

أن أعيش مليون سنة .

أن أرى الماضى .

كانت الفكرة تفزعنى .. ولكنها تخدر إرادتى وتتسلط على حواسى

نسيت كل شيء ، ولم أذكر إلا شيئاً واحداً

أن أتناول الإكسبر ، وأتلقى ذلك الإشعاع السحري لأرى ما لم تره عين

وأسمع ما لم تسمع أذن .

آكل من الشجرة المحرمة .. شجرة المعرفة .. وأدخل أجبه الموعوده .

كانت الفكرة تخدرنى تماماً .. تصبى عقلتى .

كنت كطفل أمام قطعة حلوى باهرة . يعلم أنه دماره فيها ولكن ريفه

يتحلب ليتذوقها .

وبفطرة لا تقاوم ، مثل خطرة آدم التى شدته إلى التضحية ، وجدت

نفسى مشدوداً إلى مصرى .

كانت كل حوافز حياتى تلقى لى إلى ذلك السر .

نعم .. كنت أريد أن أعيش « المليون عام » ، وأولد « المليون ولادة »

وأذوق « هذا الذى هو أشبه بالخلود .

ووجدت يدي تمتد إلى الحقنة تملؤها بالسائل الأزرق .. وبدفعة خفيفة

من الإبرة فى الوريد .. كان السائل ينساب فى دمي ببطء ومع حركة السائل

في الدم كنت أحس بشيء كالفضارة ، انتعاش غامض . مثل ارتخاف
الأوراق الخضراء في ندى الربيع ، يقظة . انتعاضة .. نشوة .. عنفوان .
تفتح مثل تفتح البراعم
إحساس غريب طازج .

صبوة نحو كل شيء

كان كل شيء يبدو في عيني متألّفاً جذاباً .

هذا رحيق مستقطر من ينابيع السعادة

ودقت ساعة الحائط الكبيرة .

وتذكرت الدقائق العشر .

كانت أمامي عشر دقائق لأكون جاهراً لأتلقى الإشعاع .

وأفادتني معلوماتي الطبية وخبراتي في المقاييس المترية للدماغ في صط

مرحل جهز وروعه لدقيقة وفي توجيه أديب الإشعاع الثلاثة إلى أماكن
المضبوطة من رأسي ، بحيث تلتقي حزم الإشعاع عند مركز المخ في الجسم
الصنوبري .

وأدرت مفاتيح عدادات الفولت والأمبير .

لم يبق إلا أن أضغط على المفتاح الأحمر فتبدأ النهاية .

وشوق لا حد له .. وكأنني ألمس شفتي أجمل امرأة .. ضغطت على
المفتاح .

وتوهجت أنابيب أشعة المهبط بوهج خافت وارتفع أزيز مكتوم .

9

كان ما حدث شيئاً لا يمكن وصفه

كل قاموس الكلمات لا يسعني

حيناً أقول إن الفزع استولى عليّ .. فإنه ليس الفزع المؤلف الذي

عرفه ، ولكنه فزع آخر لا اسم له

فزع أقرب إلى تبخر الدهن وتطايير العقل ، وكأنما قد فتح ستر فبدأ عام

محيف ، تبه نضل فيه الحواس

سماء حمراء غبراء تلف كل شيء في غيبتها أرض تختلط في ملامحها

طلال أحر عديدة وحال وأودية ، مدن عتيقة ، وشوارع مبلطة ، وحوار

مسقوفة ، وناس في ملابس تاريخية ، وأصوات مختلطة .

وأصابعي هذا الانتقال الفجائي بالتشعق فاعتقد لسانى وفقدت العلق .

وفقدت الحركة ، ونحوّلت إلى عينيّن محمّلتين مثل حفرتين من جرس تطران

في فراع

ولكن مضي الوقت بدأ يسيطر على شعور آخر مختلف تماماً عن الشعور الأول .

بدأت أشعر أن هذا العالم الغريب الذي أزيح عنه الستار ليس عربياً تماماً . وإنما هو عالم مألوف إلى حد ما .. أستطيع أن أعرف فيه على ملامحه .. عالم أصيل حقيقي .. أكثر واقعية من عالم المألوف .

بل إنى لأكاد أسمى الأشياء أمامي مسمياتها .. وأكاد أستوقف الناس الذين يهرولون في مواكب لا حصر لها وأناديهم بأسمائهم .

هذا عالم أعرفه .. وناس أعرفهم

هذا عالم عشته

لماذا أصفه لكم ؟

إنه أشبه بعالم متداخل .. تتداخل فيه الصور وكأنها صور شفافة مرسومة فوق زجاج ، وموضوع بعضها فوق بعض .. تشف كل صورة عن الصورة التي تحتها

كل شخص يشف عن شخص آخر بداخله .. وهذا الآخر يشف عن شخص ثالث ورابع وخامس إلى ما لا نهاية .

ومثل ما تتداخل الصور تتداخل الأصوات والألوان .. وتتداخل الحوادث .. وتتداخل الفترات الزمنية .. وتتداخل الأحقاب والعصور في عوالم مزدحمة كأنها الحشر .. ورغم ذلك فهي لا تختلط على العقل وإنما تبدو مميرة متباينة .. وأعجب من هذا أنها تبدو مفهومة .. وطبيعية وكل فرد في هذا العالم لا يبدو فرداً واحداً .. وإنما يبدو ألوفاً مؤلفة من

الأفراد والشخص ، مثل الصور المكررة في شريط سينمائي منظور إليه بالعين مخدرة

إن ما تراه العين في هذا العالم ليس الفرد ولكن تاريخه .. إنها ترى حجمه وزممه والزمن في هذا العالم ليس يدرك بالبداهة .. وإنما هو بعد حقيق تراه العين

وهو ليس علماً خرافياً ، بل هو عالم حقيق .

عالم يعرفني كما أعرفه

هذا واحد في الزحام اللانهاي ينظر إلى ويتسم .. ويناديني باسمي « إيزاك » .. نعم هذا هو اسمي « إيزاك » .. أنا أعلم جيداً أن اسمي « إيزاك »

وهانحن نذهب معاً إلى حانة تحت ربيع قديم لنسكر . الحانة أعرفها ، والمكان أعرفه ، والساق أعرفه ، والكل يتسمون في وحي ابتسامة الألفة والعشرة الطويلة .

وصديق « ذكران » يتحدثني عن الجارية التي اشتراها من سوق النخاسة ، ويحدثني عن رائحة عرقها ، وعن فخدها الممتلئ ، وأنا أضحك ، وأشرب ، وبجىء الشواء ، والتوابل ، وصديق يقول : ذق من هذه التوابل .. إنها من توابل البصره اللذيذة .

وعلى باب الحانة نسمع صوت ترس وزرد وصليل أسلحة .. ثم صرخة .. وأنين مجتئق .. وخطوات مسرعة ونقوم ونحن نترنخ .

وعلى باب الحانة نجد فارساً مذبحاً يلفظ آخر أنفاسه .

وأميل عليه وأضع يدي على قلبه .

وأرفع يدي الملوثة بالدم لأجد على رأسي جندياً مدججاً بالسلاح يقول

.. إيزاك اللعين .. ياقاتل .. يذاك تقطران دماً .

وأتلقت حولي .

لقد فر صديقي بجلده .

- إيزاك اللعين .. ياتاجر السم .. يالعة أهل بغداد !

- أنا لست تاجر سم يا صديقي ، ساعحك الله .. أنا تاجر عقاقير

- أهى عقاقير . أم أحجبة أم رق مسحورة يا كافر يا نجس .

- مالى أنا ومال السحر .. اتركني يرحمك الله .. أنا رجل فارسي غريب

ولست من هذه البلاد .

- الليلة تحمل ضيفاً على سجن القداحة بأبها الفارسي الغريب وغداً نقف

أمام القاضي العادل « أبو قطافة » وبعد غد تذهب بإذن الله إلى القرافة .

- أنا برىء والله العظيم .

- بأى عظيم تقسم أيها الكافر .

- أنا برىء يا ناس .

- يا فارسي يا نجس .

- أنا برىء يا خلق .

وأصرخ فيه وأقبل يديه وقدميه وأنا أرتحف رعباً .. ولا فائدة .

وفي سجن القداحة أقضى الليل في الظلام والرطوبة والبرد الذي يتخلل

نظام . ومن حولي ديب هوام . وحفيف أشياء ترحف .. وأصوات

سعال .. وحشرجة ناس تموت .

وفي الصباح أقف أمام القاضي أبو قطافة .. ويشهد الجدي شهادة عيان

بأنه رآني أقتل .. ورأى يدي مخضبتين دماً .. ويحكم القاضي على

بالإعدام . ويضرب السياف عنق أمام بوابة « أمية » .

وأموت .

ولكني لا أنتهي .

وفي هذا العالم الغريب لا أحد ينتهي ، الكل يولد من جديد ويعيش

حياته مرات لا نهائية .

فأنا مرة أخرى في دير البلح في صحراء سيناء .. الأسقف « حنين »

الأب الطيب الذي يفيض قلبه محبة .. حياتي صلاة وتعبد .. وطعامي من

التمر الجاف والشعير .. ونهارى الطويل أقضيه في التأمل وسبحات الفكر ..

والناس يسعون إلى من أطراف الأرض لأمنحهم البركة .

يا لها من حياة كلها سماح !

لا .. لم أكن أحلم .

وحينما ضرب السياف عنق أمام بوابة « أمية » لم يكن ما شعرت به

كابوساً ، لقد كنت أعيش وأموت .. وكانت حياتي حقيقة ، وكانت آلامي

واقعاً .

وفي تلك اللحظات حينما كنت أتذكر نفسي - أنا الدكتور داود -

كانت هذه الذكرى الشاحبة هي التي تبدو لي كالحلم ، يا لها من رؤى !

عشرات المرات أكتشف نفسي في عشرات الأماكن عشرات

الأسماء .. وفي كل مرة أخرج إلى الدنيا بشخصية مختلفة وكأني إنسان جديد كل الجدة .

الزمن جميعه أصبح ملكي وكأنه بويينة قلم أتفرح فيه على جميع اللقطات التي أخذت لي في جميع الأوضاع والأسماء .
مئات السنين عشتها .. وعانيتها يوماً يوماً .. كل يوم له نصارته وحلاوته ومرارته .. وكأنه أول وآخر يوم في العمر .

قبلت « ماتيلدا » الجميلة ذات العيون الخضراء في سوق قرطبة ذات مساء وكانت تحمل سلة بها تين .

وتحت ضوء قر أبريل الدافئ الحنون سرنا متحاصرين .

نحمل الأنسام وشوشاتنا .

مأحلى القلعة المختلطة !

ولسة الأنامل المرتجفة حيناً تمثر على بعضها .

وذلك الحذر والدوار .

وملمس الشعر في الجدائل .

ورائحة الطيب

وهمس الجنان .

ماذا تفعل ظبة السيف حينما تطعن قلباً أحب وعشق ؟ لا شيء ، لقد أحب وعشق .. لقد عاش ملء وجوده .. الموت لن يسلبه شيئاً .

إسا نفق من ثروة أبدية لا تنفذ .

إن عمرنا ملايين السنين .

عمرنا من عمر النجوم

نحن لا نفقد شيئاً ، ليس هناك ما يدعو للعجلة ، ولا للحسرة .
ولا للدم ، فالعمر طويل .. طويل أيدي . والعرض لا سهائية .
كنت وأنا طفل أحلم بمآتي أقود الجيوش ، وأفتح الأمصار والأقطار .
وكان قلبي يخفق طرباً وأنا أقرأ عن جيبيكز خاف وهابيل والإسكندر
ونعذبي الأمانى والآمال

لو أني فتحت كتاب حياتي

لو أني عدت إلى الوراء ، ورأيت ما أرى الآن .

الحصار على أسوار عكا ، وغبار معركة « الحصن »

وبريق السلاح الأبيض .. وأنا « ابن خزاعة » أحارب وظهري إلى

الحائط وليس في جسدي مكان لم يرشقه خنجر .. وبوابة الحصن تنهار تحت

طرقات المنحنيق .. وجيشنا المظفر يتدفق داخلاً كالطوفان .. أكاد أتحمس

مكان كل جرح في صدري وكنتي وساقى .

والألم المبرح ينفذ في لحمي كالنار .. تزه الطول والأبواق وهتاف

الحنود .

بالها من دنيا مليئة !

كنت أفكر .. وأنأمل في شروء حينما خيل إلي أن هذه لرؤى تبتعد

تغرق في ضباب كثيف ، وكأنما قد انسدت ستارة على المطر كله فراح

عجبه رويداً رويداً

وشيثاً فشيئاً بدأت أظن إلى ملامح جديدة هي ملامح معمل دميان

والكرسي الذي أحطس عليه .. وأتابيب أشعة المهبط .. وحجار الأشعة

بروائعه وعداداته .

لقد توقف الجهاز من تلقاء نفسه .. وأهتت تماماً .

كان الجهاز مضبوطاً ضبطاً أوتوماتيكياً على مدة اشتغال محددة ونظرت إلى الساعة الحائط ، واكتشفت أن نصف ساعة قد مضت منذ بدأت الجلوس أمام الجهاز .

معنى هذا أنى قد عشت مئات السنين في خلال هذه النصف ساعة .. في خلال ثلاثين دقيقة عشت كل هذه الأحداث التى تملأ مجلدات . معنى هذا أنى كنت في عالم آخر له زمه المختلف ومعاييره المختلفة .. عالم .. الدقيقة منه تحفل بأحداث سنين ..

إنه اكتشاف رائع .

إننا سجناء دقائق مفلسة يمكن أن نعيشها سنين خصبة غنية إذا عرفنا كيف نخرج من أسرها لنخلق في أجواء ذلك العالم الآخر .

كيف نستطيع أن نحقق هذا ؟ ؟ ؟ !

وكيف نستطيع البقاء في ذلك العالم الآخر إلى الأبد ؟ ؟ ؟ !

سؤال لا شك أنه كان يشغل بال دميان فحاول أن يجيب عنه .. واستغرق في هذه البحوث الكيميائية محاولاً أن يصل إلى سر هذه الآلة العجيبة التى اسمها المخ .

إن المخ أرشيف . فهرس . كما قال دميان .

سجل فيه . محضر كامل لما حدث في هذه الدنيا منذ بدء الخليقة مدوناً في خلايا ومكتوباً على لفائف الأعصاب .

كيف نبعث هذا السجل الحافل . كما نستعيد ذكرياتنا اليومية في عقولنا كل لحظة
هذه هي المحيزة التى حاول أن يحققها دميان باستخدام أكسيره

١٠

كانت أمامي مهمة عسيرة .
 أن أعرف تركيب الأكسير .
 وفكرت أن أبدأ في تحليله منهجياً .. ولكن العقبة كانت في كمية
 الأكسير الموجودة .. كانت كلها لا تزيد على عشرين سنتيمتراً .
 معنى هذا أن أكتفى بقطرات لأجرى عليها اختباراتى . وهذا عسير .
 وكانت هناك رغبة أخرى تنازعنى .. هي رغبة حادة ملحة في الاستمتاع
 بهذه الكمية لأعيش تلك الحياة المسحورة وأعود إلى ضباب الماضي ولذاته .
 كانت كل قطرة في طياتها وعداً مغرياً بحياة طويلة عريضة حافلة
 بالأحداث .

وكانت هذه الرغبة تتحول عندي إلى شهوة أكالة مسيطرة متسلطة أقوى
 من شهوة المدمن إلى الأفيون .
 وكان الضعف والتخاذل يستولى علىّ كلما مددت يدي إلى أنبوبة

السائل ، وكنت أشعر أنها أثمن وأغلى وأقدس من أن تبدد في أى غرض ،
 ولو كان هذا الغرض هو اكتشاف حقيقة .. فأية حقيقة أثمن من الحياة ؟ !
 إن هذه السائل الثمين هو وعد بالحياة لكل من يتعاطاه .. وأية حياة ؟
 مئات السنين الحافلة بالمتع .

وأمام هذا الإغراء الأكال تحولت إلى إنسان سلب الإرادة . محدود
 الذراعين في تسول خاضع خانع يشتهي قطرة .

في دمي وفي نخاع عظامي نداء ذليل .

وفي قلبي فزع يراودنى .

ماذا لو نفذ السائل ؟ !

كنت أشعر بسعار .

سعار أقوى ألف مرة من سعار الجنس في جسد فحل مراهق .

كراييج تلسعنى .

وتذكرت دميان .. وهو يتجول في المقابر مثل الخفافيش مصاصة

الدم .. جرياً وراء هذه القطرات الملعونة .

إنه الجنون .

لقد أدركت سر نظرتة المجنونة وهو يقف أمامي في آخر مرة ينظر إلى

السائل في يدي .

لقد كانت عيناه تخرجان من محجريهما .

نعم .. لم يكن هناك مسيل إلى مقاومة هذه الشهوة المدمرة .

ورأيت نفسى أتحرك في خطوات مخدرة إلى أنبوبة السائل ، وأملأ الحقنة

وأحقن بها ذراعى وأنا أرتجف بنشوة غلاية .

وبعد الدقائق العشرة كنت أجلس في مكانى من الجهاز ، وأضغط على
المفتاح لأدخل مرة أخرى في تلك الغيبوبة المسحورة .
وكانت كراييج حقيبة هذه المرة تلك التى نزلت على ظهري العارى ..
وأنا أدير أنا وعشرات من العبيد رضى معصرة زيت ..
متى .. وكيف .. ولم .. جاءوا لى إلى ذلك المكان ؟
وفى أى عصر من عصور التاريخ الغابرة .
ومن هو السيد الذى يخطر بينا بحلة موشاة بالقصب ويدفنى فى
ظهري صارخاً .. اشتغل يا كلب .
يا إلهى .. ولكنى لست إنساناً ؟
أنا ثور وعلى عيني عصابة .
وأنا أخور كالثيران .
وأنا أمشى على أربع .
وأنا لى حوافر .
وأنا آكل التبن .
وجلدى سميك . وإحساساتى بليدة . ولا أشعر بفارق يذكر بين لذع
كرباج وضرب عصاً .
واهتماماتى فى الدنيا قليلة . أن آكل وأشرب وأوقع الأنثى . أى أنثى .
وذاكرتى لا يعلق بها شيء . فأنا لا أذكر شكل أولادى وأنا لا أحزن
ولا أفرح . وإنما أجوع وأشبع على أكثر تقدير .
وبعد الشبع أنام .
وهو دائماً نوم عميق .

لا أحد منكم جرب نوم الثور .
لو جربتموه لتختم أن تكونوا ثيراناً .
إنه لشيء فريد . ذلك النوم الذى يتحول فيه الواحد منا إلى قالب
طوب .
إن قلوبنا تقشعر حينما نتصور ذبح ثور . ولكنه ليس أمراً مؤلماً بالقدر
الذى نصوره .. إن ألم الضرس أشد منه .
إن ما أحسست به ذات يوم حول عنق حينما ذبحونى كان ألماً بليداً لم يدم
إلا فترة قصيرة .. ثم انتهى كل شيء .
لا لم ينته .. فلا شيء ينتهى فى ذلك العالم .. أبداً .
فها أنذا مرة أخرى أعيش .
لست ثوراً هذه المرة .
ولا أعرف بالضبط من أنا .
كل ما أعرفه أنى فى غابة ، وأن الغابة مليئة بالأشجار ، وأن الأشجار
هائلة الحجم ، وأن الأرض تغطيها المستنقعات .
مستنقعات .. مستنقعات فى كل مكان .
ولا صوت حولى سوى صوت الرياح .
والأمطار تسقط بغزارة ، والجو يقطر بالرطوبة .
ومياه المستنقعات دافئة ، ويخرج منها من وقت لآخر غازات فسفورية ،
وأوراق الأشجار غريبة الشكل أشبه بأوراق السرخس المنقرضة .. ولا توجد
مخلوقات .
ولا شيء يذكر يحدث حولى .

والزمن يمضي بطيئاً بطيئاً .. وكأنه لا يوجد شيء اسمه زمن .

وعندى إحساس رهيب بالخواء .

ياإلهي .. إني شجرة .

لعلها مئات السنين تلك التي كانت تمضي ، لأن ستار الضباب عاد
فانسدل على المنظر كله مؤذناً بانتهاء التجربة .

وبدأت أفيق من جديد على مكاني من الكرسي في معمل دميان . وقد
انقضت نصف الساعة .

كانت تجربة عجيبة .

تركت الجهاز ..

وجلست أكتب مذكراتي وأنا ألث خشية نسيان ما رأيت ..

كنت أريد أن أسجل كل دقيقة عشتها في ذلك العالم المسحور .

ولاحظت بجنب عيني وأنا أكتب أن السائل لم يبق منه إلا نصفه .

ولاحظت ملاحظة أخرى أفرغتني .. أن النصف الباقي من السائل قد

تغير لونه من الأزرق إلى الأخضر .

ليس اللون فقط .. بل الرائحة أيضاً .

لم تعد له رائحة الثوم .

لقد أصبح شيئاً آخر .

لقد فات الوقت .. ولم يعد من الممكن معرفة تركيبه .

لقد تحلل إلى مركب جديد .

ولاشك أن خواصه قد تغيرت أيضاً .

وكان خاطراً مفزعاً أن أتصور أنه لم يعد فعلاً ، وأنه لم يعد من الممكن

أن يؤثر في المخ كما كان يؤثر في الماضي ، وأن العودة إلى ذلك العالم المسحور

قد غدت مستحيلة .

وما بقي لي من عمر سوف أقضيه سجين هذه الدنيا المفلسة .

لم يعد هناك مخرج .

لن أجد مهرباً من هذا العالم الغليظ .

لن أستطيع التحليق خارج الزمان والمكان .

كان تصديق هذا الخاطر شيئاً فوق احتمالي .

وأسرعت أهلاً الحقنة وأحقنها في ذراعي .

كنت أريد أن أطمئن .

كانت هذه آخر ورقة كتبها الدكتور م . داود في مذكراته .. فقد عثر

عليه بعد ذلك بساعات ميتاً في معمل دميان .

وكان المعمل يحترق إثر شرارة كهربائية مجهولة المصدر ، وكل الأجهزة

قد اشتعلت فيها النيران .. لم تبق منها إلا هياكل فحمية .

وقال الطبيب الشرعي الذي فحص البقايا المحترقة في تقريره عن

مذكرات الدكتور م . داود .. إنها مذكرات عجيبة .

وحينما سأله وكيل النيابة :

- ماذا تعني بقولك إنها مذكرات عجيبة ..

ظهرت علامات الحيرة على وجه الطبيب وأردف قائلاً :

- كل ما هو مكتوب في هذه المذكرات عن الجسم الصنوبري .. وعن

الحيوية في البراعم ، وفي خلايا الجنين ، وفي غدد العنكبوت
والأكتوميسين ، يمكن أن يكون صحيحاً من الناحية العلمية ولكن
- ولكن ماذا ؟

- ولكن الأمر كله يبدو غير معقول . هل يمكن أن تتصور أنك تعيش
حياة أبدية ؟

وبدا الارتباك على وجه وكيل النيابة وأجاب في صوت خافت .
- نعم إنه شيء غير معقول . إنه الجنون بعينه .
ثم أردف وقد خفت صوته أكثر .

- ولكن . من يدري . وهل نعرف نحن كل شيء في هذه الدنيا . . إن
كل ما نعيشه بضع سنوات في زمن لا أول له ولا آخر .
ماذا نكون نحن في عمر الدنيا حتى ندعى الإحاطة بكل شيء . هذه
دنيا كلها طلاس .
كلها طلاس .